
نفوس قلقة
ثريا ملحس

زاهي نجيب الخوري
١٩٥٦

# نفوس قلقة في الطبيعة

ثريا ملحس

# نفوس قلقة

## اللوحات

جوزف تيرنر

JOSEPH MALLORD WILLIAM TURNER

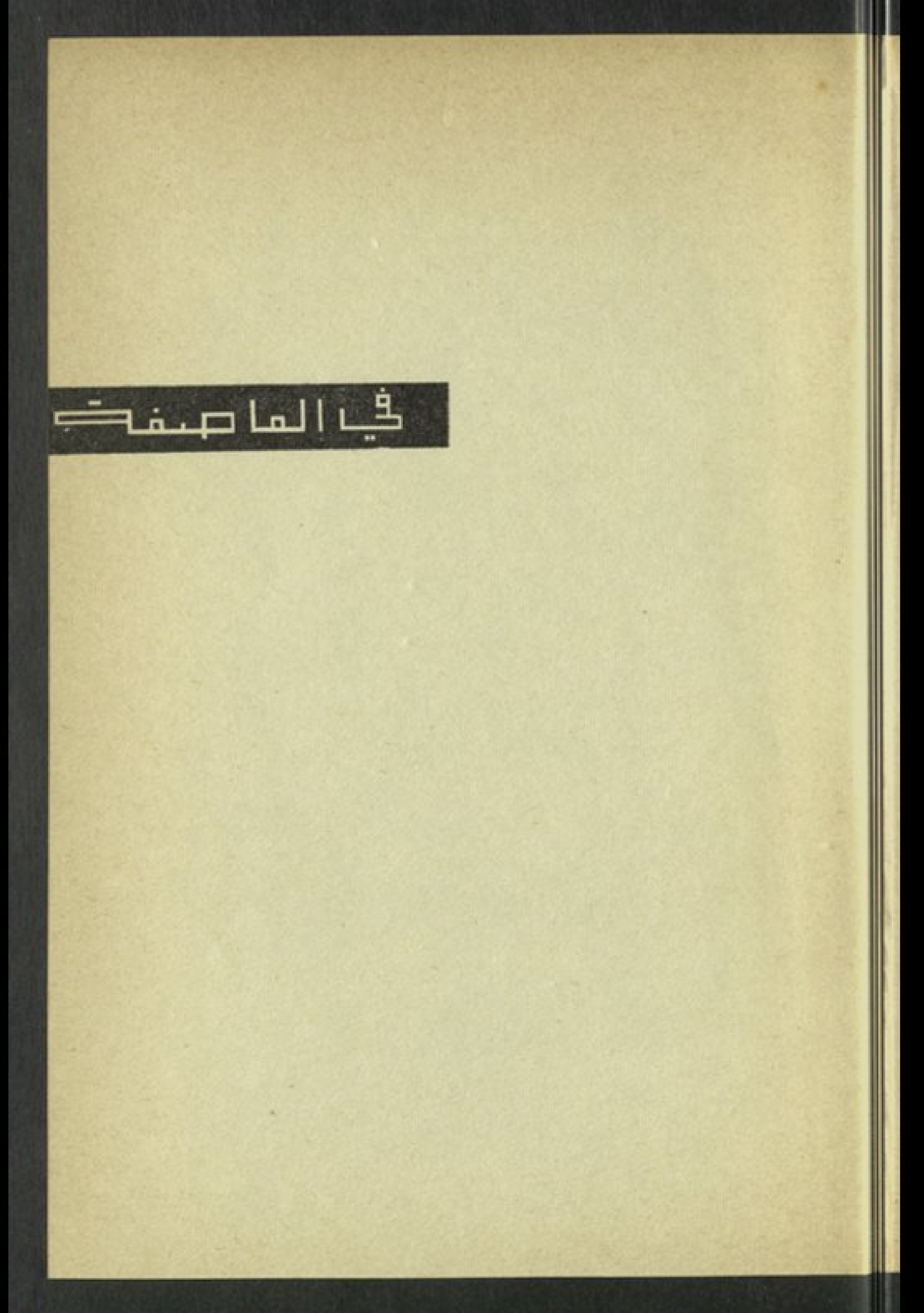
١٧٧٥ م – ١٨٥١ م

- ولد في لندن في ٢٣ نيسان سنة ١٧٧٥ م ، وتوفي في ١٩ كانون الاول سنة ١٨٥١ م .
- بدأ بالرسم في الثالثة عشرة من عمره .
- عرض لوحاته في الخامسة عشرة من عمره ، في الاكاديمية الملكية في لندن .
- كان معلماً للرسم ، ومن تلاميذه وليام بليك (William Blake) الشاعر .
- لم يكن يجيد اللغة الانكليزية .
- كان يحسن الحفر على المعادن ، وكان شغوفاً بدرس العواصف في الطبيعة .
- دعي لرسم معركة ترافلغار (Trafalgar) البحرية ، وعندما رأى نلسن (Nelson) اللوحة قال : « كأن هذه اللوحة منظر شارع لا معركة بحرية » !
- في السادسة والعشرين ، عرض لوحاته في الاكاديمية الفنية ، وقوبل العرض بالاستحسان والرضى .
- في سنة ١٨٠٧ م ، عين استاذاً للفن في الاكاديمية الملكية .
- زار سكوتلاند ، وفرنسا ، وسويسرا ، وزار ايطاليا ثلاث مرات .
- من الفنانين الذين اتصلوا به أو تحدثوا عنه :

جون رسكن (John Ruskin) الناقـد والأديب ، هوريشيو نلسن (Horatio Nelson) أمير البحر ، وليام بليك الشاعر والرسّام .

- وهو رسّام انكليزيّ ينتمي الى المدرسة الرومانسيّة .
- من أشهر لوحاته :

ليلة مقمرة – جبال – مناظر في ويلز – قوارب صيد – السمك – العائلة المقدّسة – الطاعون العاشر في مصر – تحطيم سفينة – موت نلسن – خراب – عاصفة ثلجيّة – شمس فينّا – مطر – في المساء – عاصفة بحرّية .


في العاصفة

كان صامتاً ، كره الحروف والكلمات ، كره الأصوات والثرثرات ، عاش بعيداً عن الناس ، لا يحبّهم ولا يرجو منهم خيراً ولا فهماً ..

ليته لا ينتمي الى البشر ، ليته يخلق لنفسه عالماً افضل من هذا العالم الذي يضجّ بالناس ، ويعجّ بلغوهم .

ليته يخلق لغة أفضل من لغة هؤلاء الأقزام ، ليته يخلق لغة الغبطة الروحيّة والنشوة الالهيّة ، لغة الاحساس بالجمال ، هذا ما أراده ، وهذا ما تمنّاه .

ما أسعد الانسان الذي يقف متأمّلاً غائبـاً عن الوجود ، تتمطّى كل أنملة من أنامله عواميد ضخمة ، تستمدّ من القوّة الألهيّة عبقريّة فذّة ، قلّما يدركها الأنسان ، تنزع من صدرها جمالاً رائعاً يتسرّب الى عيني الفنّان !

سكنت العبقرية في أنامل الفنّان ، ورقد الجمال في عينيه ، هذا كلّ ما تمنّاه ، وكلّ ما كان ..

أمّا جسده فقد سكبته الآلهة في قالب يبدو للعين كأنّه شبه إنسان ، كأنه كومة من طين ، عافها إزميل النحّات ، فقذفها غاضباً ، ساخطاً دون انتهاء ، وتدحرج التمثال من بين يديه عـديم الهيئة ، دون شكل ، دون صقل !.. ووقف التمثال الحيّ نافضاً عن قدميه الغبـار والرمال ، مهدّداً بأنامله السماء ، ومشى وحيداً في الدروب

الوعرة ، فتفتّقت من تحته دروب ، وسالت كلّها تحت قدميه دون لفتة ولا التـواء .. وجاب الشاطىء من فوق إلى تحت ، ومن تحت إلى فوق ، يبحث عن شيء ، يبحث بصبر غريب ، وقلق ظاهر على كلّ حفنة من محيّاه ، كأنّه عالم من العلماء .. يبحث بإحساس فائق ، إحساس الفنان المبدع . وراح يركع على التراب ، يكبّ على ذرّاته ، يلمس الصخر ، ينزع طبقاته .

وطال به الطواف ، طال به الطواف من جزيرة إلى جزيرة ، ومن شاطىء إلى شاطىء ، ومن بلد إلى بلد ، يبحث عن تكوين الأرض والسماء وما بينهما ومـا حولهما من الفضاء الرحراح . وقف ينظر إلى الجبال والأنهار ، إلى البحار والسهول ، إلى الشمس والغيوم ، إلى الشروق والغروب ، ويندفع اندفاع الصاعقة ، يحوي بين جانحيه اكتشافاتـه ورؤاه ، يسجّلها بريشته العبقريّة ، وفي مرسمه المتواضع .

أحبّ الفنّان الطبيعة حباً هائلاً، أحبّ فيها الأرض وما تخرجه من نبات وجماد .. أحبّ البحر ومـا فيه من أمواج وألوان .. أمّا العاصفة فقـد أحبّها في السماء وفي الأرض ، أحبّها فهدأ قلبه الصارخ ، وأسكنها سويداءه ، فهدأت العاصفة هناك ، تحدّته دون ان تتجلّى أمامه .. وعندما انطلقت هزّات ، تكلّمت بلغة العبقريّة ، فانفتحت

حواسّ الفنّان مصغية إلى الثورة العنيفة ، مطمئنّة الى ضالتها الشرود .

أحبّ عاصفة البحر ، ونزل الى البحر بحسّه ، يلمس منه كل موجة ، يرقب الأمواج الصاخبة ، تارة في المدّ واخرى في الجزر .. وتهفّ على جانبيّ المركب ، تلمس جسده المرتعش ، فيزداد ارتعاشه غبطة وفرحة ..

ها هي الغيوم تتلاحق ، تارة بيضاء وأخرى سوداء ..

وها هو الرعد في هزيمه ، والبرق في ولوفه ، أما الشاعر الفنّان فهو رابض في قاع المركب ، يتأمّل ملاحظاته ، كأنه يريد ان يصف المشهد بقصيدة .. يدير دفّة المركب ، ويعود الى الشاطىء دون ان ينفض رشّات الماء عن ثوبه ، ويمشي جزلاً الى مرسمه ، ينثر البركة فيه ، ويلوّن ما شاهد على لوحة ، بلغة الخطوط والألوان .

امّا عاصفة السماء ، فكانت تهزّه هزّاً ، فيغيب ، وتحرّك أعصابه ، فيستمدّ منها الخلود ، وتشخص عيناه في السماء ، وتعلقان بالشرر المدفدف حوله من اصطدام الغيوم ، وينسى انه كومة لفظها الخالق دون صقل ، دون انتهاء ، ويرفع يديه متمتماً آيات الخالق ، طالباً منه ان يتهادى أمامه لانّه مثيله ، ومثيل كل فنان مبدع ..

كان الفنان في زيارة صديق له ، وقلّما يزور ، وهجمت

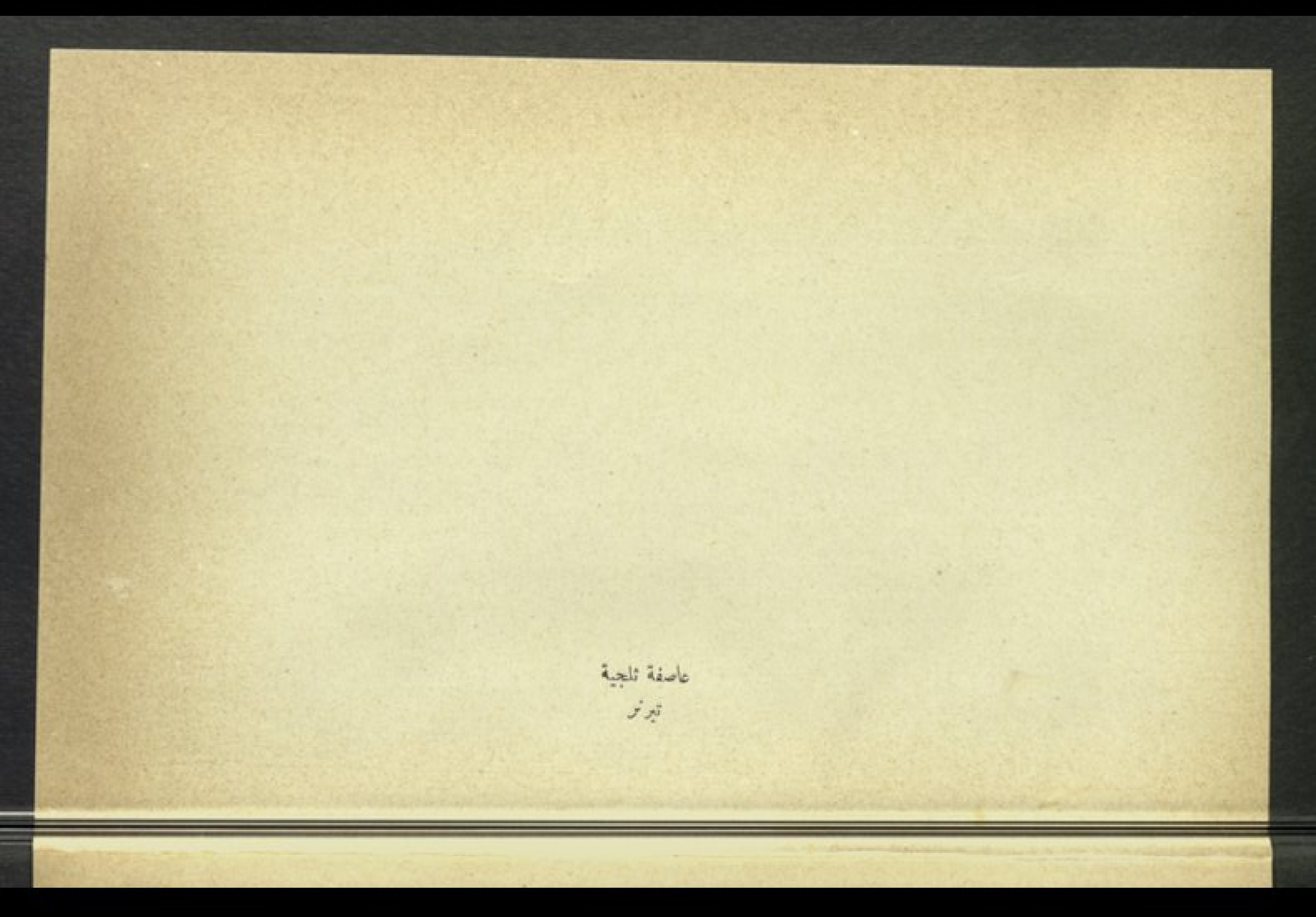
العاصفة ، وزعق الرعد ، والتمع البرق ، وأسرع الفنّان إلى الباب وفتحه على مصراعيه منتصراً ، كأنّه كان يتمنّى ما رأى .. رأى العاصفة في أوجها تدور ، فصرخ بفرح وسرور ، صرخ مهللا :

- أنظر .. أنظر ياصديقي .. أليس هذا المنظر بديعاً أليس هذا اليوم رائعاً ؟ أليس ..؟ تأمّل .. أنظر .. هل ترى ؟ هل تسمع ؟.. خذ ورقة .. خذ يا صديقي .. أكتب .. أرسم .. آه ما أسعدني ! ما أسعدني في هذه الزيارة !. أبت العاصفة إلا أن ترافقني .. ما أجلّها ! ما أروعها ! هي التي وهبتني قوّة الهيبة خارقة .. ما أجلّ العاصفة !..

وقمرتْ عيناه بالوحي ، وأخذ ورقة يسجّل عليها انفعالاته النفسيّة ، واكتشافاته العميقة ، ومشى ..

مشى إلى القرية يدرس حالاتها ويسجّل مناظرها ، لكنّ ريشته عصت ، وأبت ان تطيعه ، ورفضت كلّ شيء حتى تغمس رأسها في قلب العاصفة ، وعاد إلى الشاطىء ، يدرس البحر في جميع حالاته ، وكم تمنّى لو كان سمكة من هذه السمكات العائمة ، أو لؤلؤة في قاع البحر من تلك اللآلىء والمرجان الغائرة ، وجلس على الرمال يسجّل الطبيعة في اعنف مظاهرها وأوحشها ، في العواصف التي أخمدت





عاصفة ثلجية
تيرنر

عواصف روحه ، وطمأنت قلق نفسه ، فوجد فيها عزاءً جميلاً ، ومعنى رائعاً للوجود .. وكانت ريشته تركض ركضاً ، طيّعة لدنة بين أنامله ، لأنّها لانت للعواصف ، كما لان قلبه لها .. هذا هو الفنّان الذي لم يستطع ان يعبّر عن نفسه بالحروف ، لانه كره الحروف والكلمات والقواعد والصرف ، هذا هو الناسك العابد الذي حبك في لوحاته الرائعة مشاعره وأحاسيسه ، وحرّكها بألوان ترِفّ ، وأوتار تعزف .

حقاً كان تيرنر فنّانا في ذروة الفنّ النقيّ ، يدرك الجمال ومدى تأثيره في النفوس الرقيقة .

وبعد ان تعب من الطبيعة ووجوهها ، أراد ان يبحث في ما وراء الطبيعة ، وتناول المنظور ، ونسجه بأحلامه الخياليّة المرعة ، وحطّم التقاليد ورماها فى مَهاوي العاصفة ، فالتهمتها مصفّرة ، ومشى وهو يتمتم :

إن « جون رسكن » يعرف كثيراً .. نعم يعرف كثيراً كثيراً عن رسومي ، يعرف أكثرمني .. إنه يشير إلى معان لم تخطر ببالي ! ويضع في رأسي أشياء لا أعرفها ..

ان رسكن انسان أحبّ الجمال أينما كان ، أحبّه في ذروته ، لذلك أحبّ ما خلقته ريشة تيرنر .. لا بأس ان ينقده رسكن لان رسكن حسّاس بطبعه ، شاعر كبير لم يتطفّل على

الفنون كعادة النقّاد الثرثارين ... إنه ناقد نقيّ ، لانّه شاعر حسّاس . وظلّ الفنّان تيرنر وحيداً ، لم ينفتح قلبه الا على العاصفة ، ولم تهدأ روحه القلقة الا في العاصفة ، وظلّت العاصفة رفيقته الى الأبد تهدهد رأسه على رأسها ، فتنزاح عنه الهموم والأتعاب ..

ابتعد عن الناس ، لانّه كره النـاس .. انعزل عن الناس ، لانّه أراد أن يحيا لنفسه وللعاصفة في أعنف حالاتها..

أحبّها حبّاً جنونياً ، فكان حقاً شاعر العاصفة وفنّانها ..

مرض تيرنر ، ولم يؤمن بالموت ، وكيف يؤمن من في قلبه عواصف أقوى من عواصف الموت ؟..

وبالرغم من ضعفه ، دفع كرسيّه إلى النافذة ليرى الحقول، ويمرّغ ناظريه بالزهور ، فاغرورقت عيناه بدموع باردة ، وَكَفَتْ على خدّه ، وهمس :

ودّع الطبيعة حبيبتك ، رفيقة طفولتك وصباك وشيخوختك ..

إرفع عينيك بالنشوة الصوفيّة .. خذ ورقة صغيرة ، سجّلْ عليها كما كنت تسجّل .. سجّل عليها الجمال ، جمال الحبيبة ، واقتنص ألوان الوداع ..

سجّلْ يا تيرنر .. سجّل .. انـك قويّ ، قويّ .. جبّار ..

رفع تيرنر أناملـه ، فلم ترتفع ، حدّق بالطبيعة فانطفأ النور في عينيه ، دارت به العاصفة ، فانسدلت أهدابه

على أروع لوحة ، وانغلقت أذناه على أبدع نغم ..
وظلّت العاصفة الاخيرة صامتة ، مدفونة في بؤبؤيه ، ونزلت معه لوحة رائعة ، نزلت معه الى القبر لتردّ عنه الفَناء ..

جان ميليه

JEAN FRANÇOIS MILLET.

١٨١٤ م – ١٨٧٥ م

▲ ولد في قرية غروشي (Gruchy) في ٤ تشرين الأوّل سنة ١٨١٤ م ، وتوفي في باربزون (Barbizon) في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٥ م .

▼ كان فلاحاً ، يعمل في الحقول .

▲ ذهب الى باريز ليدرس فنّ الرسم .

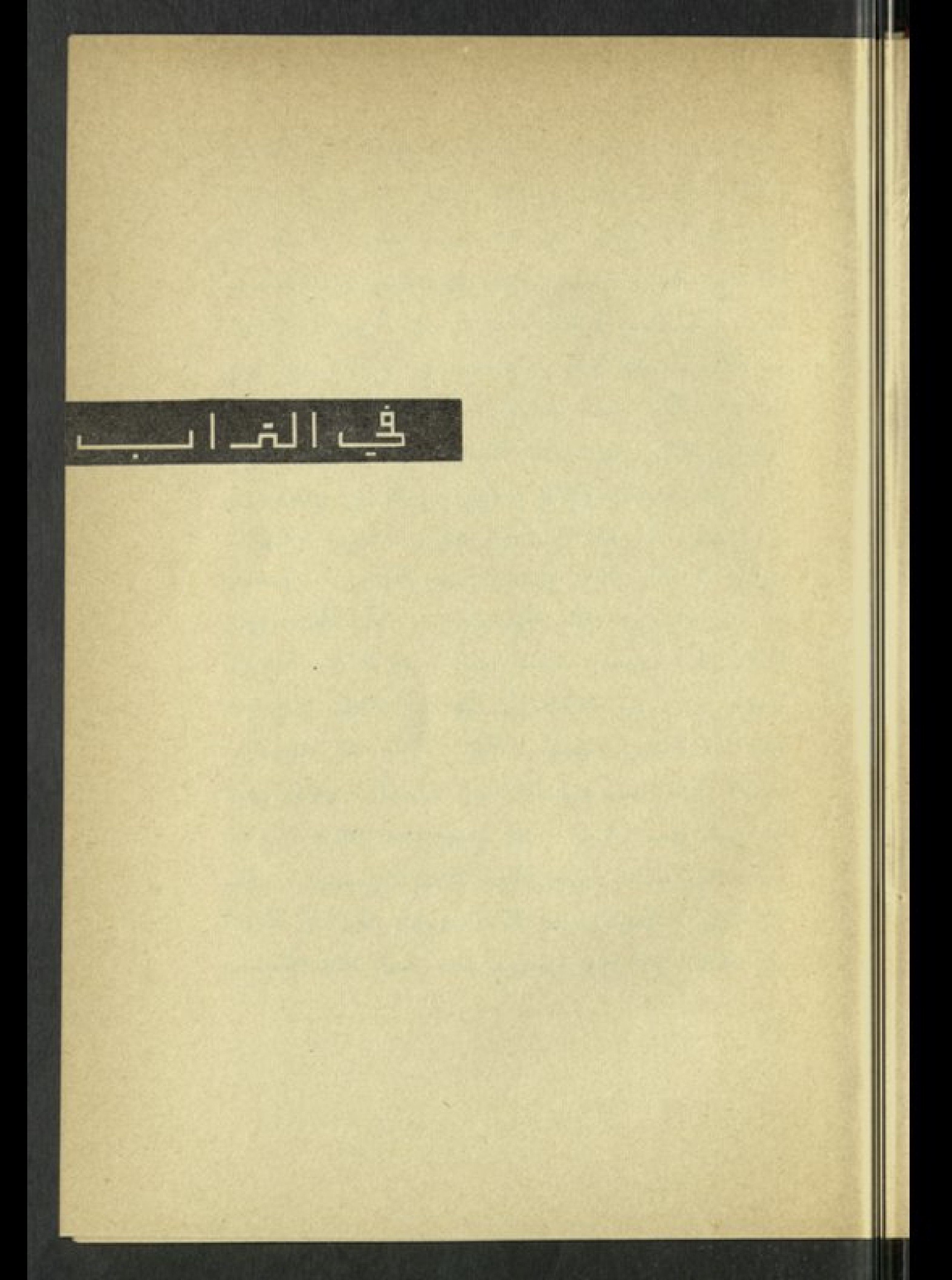
▼ عبّر في لوحاته عن حياة الفلاحين بطريقة بسيطة ، حيّة ، مدركة .

▲ زار الولايات المتحدة .

▼ من الفنانين الذين اتصلوا به أو تحدثوا عنه :
الكسندر دوماس (Alexandre Dumas) الأديب الروائيّ ، إدون ماركهام (Edwin Markham) الشاعر ، بول جزل (Paul Gsell) ولابروبير (La Bruyère) النقّادان .

▲ وهو رسّام فرنسيّ ينتمي الى المدرسة الطبيعيّة الواقعيّة .

▼ من أشهر لوحاته :
الرعاة - الحصّادون - الزارعون - المعفّرات - امرأة مع بقرة - جزّ الأغنام - الراعي يجمع قطيعه - صلاة المساء - حقول الاغنام - الحقول - الراعية والقطيع - الراعية الصغيرة .


في التراب

كانت نفسه مفعمة بالحزن ، لا يروقها إلا صور العذاب والألم ، كان مكبّاً على ذاته متأمّلاً ، ينظر إلى صورة رجل يموت « لمايكل انجلو » . وقف هنيهة ، غير أنّ قلمه ألحّ عليه ، فحمله ليكتب إلى صديق له : أحسستُ الموت يمزّق نفسي تمزيقاً ، حزنت على الرجل ، تألّمت مع ذلك الانسان الذي يودّع الحياة في كلّ ثانية من ثواني النزاع ، كأنّ جسده جسدي ، وأعضاءه أعضائي ..

قليل من الناس يقفون أمام العذاب ، والألم بقلوب كبيرة يشاركون العذاب والألم ، قليل من الناس يرتقون إلى ذروة النشوة الروحيّة الجميلة وهم يختبرون البؤس والشقاء . كثير هم الناس الذين ينفرون من العذاب ، يجدون فيه قبحاً وتشويهاً لحقيقة الحياة ... أمّا الفنّان فيرى الآلام غذاء لروحه ، يتلقّفها بعزم ، يحوّلها إلى جمال وأمل .. ولم يدر الفنّان ذلك السرّ العظيم الذي يجعله هادئاً عندما يحسّ العذاب والألم ، كأنّه خلق محروماً ، وكأنّ الآلهة دعت عليه أن يظلّ محروماً . وقف يبحث عمّا يسعد نفسه الحزينة ، عمّا يهدىء نفسه القلقة . وقف يبحث عمّا يساعد روحه المتعطّشة إلى المعرفة . وقف كالقدّيس ، يحمل في يده التشاؤم وينثره بخوراً في الكون علّ الكون يردّ عليه ، ويسمع بنات السماء تنشد أناشيده ،

وسعالي الغاب ترقص رقصة التراب ، يكاد لا يصدق هذه الرؤى ، لكنها رؤاه ، يكاد يصرخ ليبعد عنه الأناشيد لكنها أناشيده .. يجلس تعباً تحت دوحة ، تميد الدوحة وتهزّ أفنانها ، وتنشرها مراوح تبعد عنه حرّ النهار وكدّ العمل ..
ألم يكن فلاحاً ابن فلاح ؟ ألم تختره الطبيعة رسولاً للفلاحين ؟ ألم تعيّنه وليّ عهد البؤس والشقاء ؟
يتأمّل السماء وازرقاقها ، والارض واخضرارها ، يتكىء على التراب ، يمدّ إصبعاً ثم يداً ،يشعر بدبيب خفي في عروقه كدبيب النسيم في عينيه .. إنّه التراب ، لا بل حبّات التراب تتراقص بين أنامله ، إنّها تغرّد له كما غرّدت له من قبل بنات السماء وسعالي الغاب . يشعر بالفرح يغمره ، ويغمر ما حوله .. بخار طيّب يتصاعد من ذرّات التراب ، ينطرح على التراب ويمرّغ جسده كلّه في التراب ، يهمس في آذانها : أنا فلاح ابن فلاّح ، أنا ابن الأرض .. وفجأة يقف محدّقاً بالكائنات التي تروح وتجيء ، تحصد وتعفّر بأقدام بائسة تعبة ، وهيئات فقيرة تعسة ، وتعود إليه رؤاه مع ماضيه وحاضره ومستقبله ، وتنشد له أغاني التراب ، ينصت لها فيحرّك الريشة بقوّة .. ألم تختره الطبيعة رسولاً لهذه الكائنات ؟.. يقسم أن يخلّدها رغم الأغنياء ،

يقسم ان يبني لها هيا كل الأثرياء ، وتعود إليه ابتسامة لا يدري كيف استطاعت ان تشقّ وجهه الحزين ، وغبطة لا يدري كيف دبّت في عروقه النحيلة ..

ما أسعد الفنّان عندما يجد نفسه ! وما أسعده وهو في طريق الخلاص !.. وجد آلات يلمّ بها الألم والشقاء والعذاب .. تلك كائنات مرّت أمامه بالأمس ، أقسم ان ينثرها ألواناً ملأى بالأمل والفرح .. حمل ريشته فمشت الريشـــة ، راحت تخلّد حياة الفلاحين ، تلك الكائنات التي مرّت أمامـه بالامس ، راحت تسجّل بلهب راقص وقلب غرد ..

ولم يترك الشقاء يمرّ دون ان يحوّله إلى سعادة ، وإلى خلود ..

عرف الفنان ميليه التراب ، فاطمأنّ إلى التراب وأصدقاء التراب ، هدأ قلبه الثائر ونفسه القلقة .. رأى في التراب حقيقة الوجود وسرّ العدم ، من التراب جئنا وإليه نعود ، هو سرّنا وسرّ اجسادنا ، هو سرّ حياتنا وسرّ موتنا . ألا يحرسنا ويطوي آلامنا ؟ ما أعجب التراب ! وما أرحمه ! والفنّان ينحني يعبّ من خيراته ليخلدها بريشته العبقريّة ، وينزاح عن كاهله عبء ثقيل .. يترك التراب وحده يقصّ حكايات الألم وقصص العذاب ، مخلداً رسله الفلاحين ، ملقياً عليهم جميعاً أزلاً لا يدركه الا المتأملون .

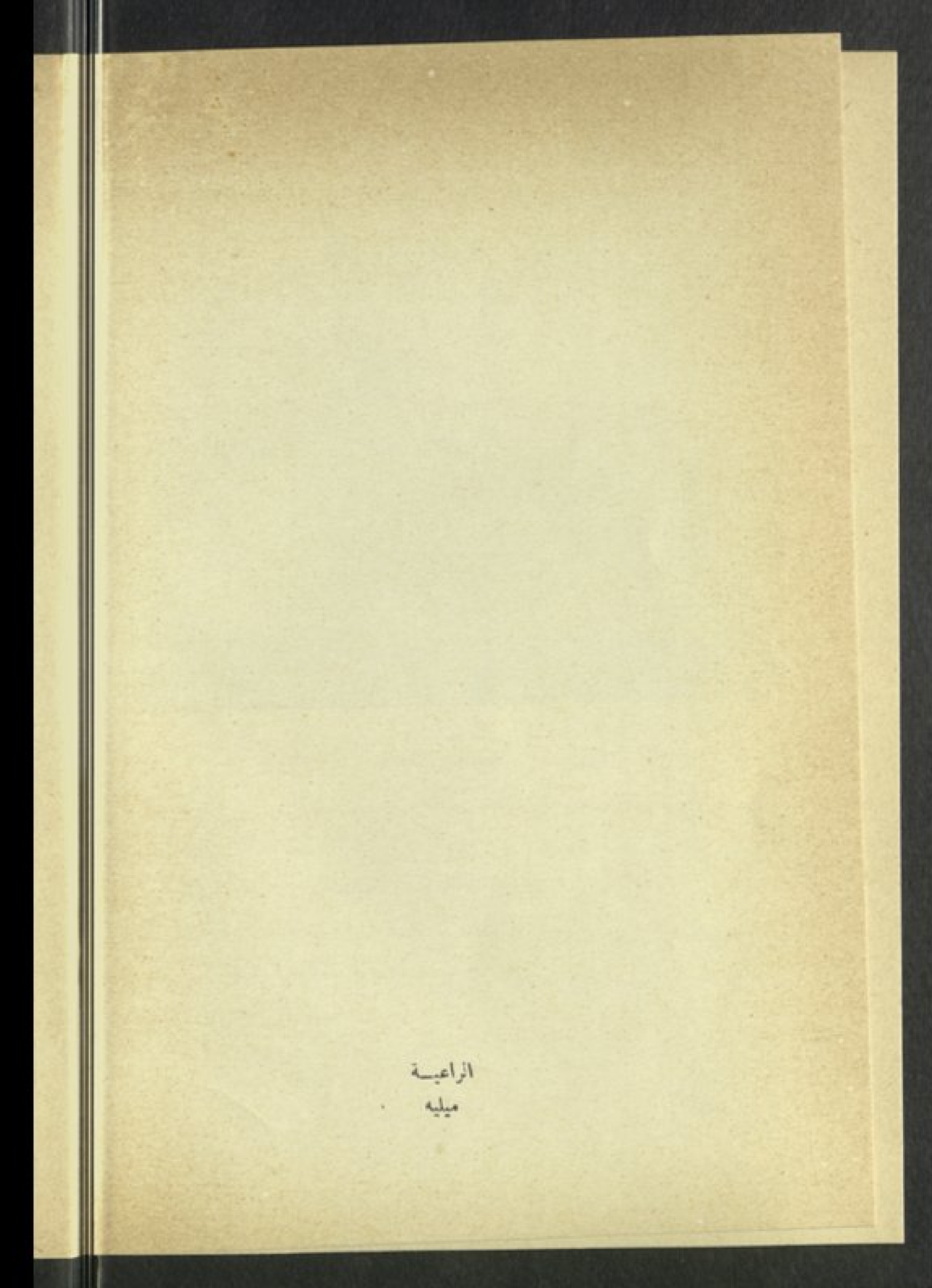
وعندما يترك ميليه ريشته ، يعود إليه وجوم حزين ، لم

تستطع قوّة ريشته العبقريّة، التي تغيرّ آلام النــاس إلى جمال وسعادة ، أن تغيرّ ما في نفسه من أحزان، وكثيراً ما ألحّ عليه الألم ، فيحمل ريشته ليريح نفسه القلقة ، غير انّه لم ينسَ أن يردّد دوماً اقوال أنجلو : على الانسان ان يعدّ أيام الحزن لا أيام الفرح .. وكان ميليه يخاطب الناس في السنين الجديدة بقوله : ما اشدّ حزني !.. أتمنى لجميعنا أقصر العمر !..

هكذا ظلّت الحياة شديدة عليـه ، لايرى نورها الا من خلال ريشته ، وظلّ يردّد ويتساءل بدهش : ما الفرح ؟ ما هي الحياة ؟ كيف تكون السعادة ؟.. أمّا قلبه فظلّ خريفاً وشتاء ، أحبّ كليهما لانهما يجلّلان الحقول والغاب بالهدوء الحزين ، ويشيعان الرعب في قلوب الكائنــات ، فتختفي ، وينطلق الفنان وحده إلى الحقول والغاب ، ليشعر بأحزانها وشقائها ..

أحبّ العزلة وانطلق إلى الغـاب يتأمله وإلى الغسق يشاهد تماوج ألوانه ، يرسم الاظلال والاشباح والارواح .. ويعود من الغاب تعباً ، يجرجر أقدامه ، خائفـــاً ، ترتجف أوصاله .. في أذنيه نداءات الطبيعة الصامتة ، وتخشخشات الاوراق ، ووشوشات الآلهات ، كأنّها تدور حوله ، فيغيب عن الوجود ، يتمتم بكلمات لولا وضوحها لكانت هينمات :





الراعيـة
ميليه

لا أفهم .. لا أفهم ما تقول .. هي .. هي الاشجار والمياه والزهور .. ويصرخ في وجه الطبيعة : علّميني أيتها الكائنات ، علّميني لغتك ، علّميني .. اصرخي .. ضجّي .. لن أخاف .. لن أخاف منك بعد اليوم ..
يسمع صدى كلماته ، ويرفع يديه ليمسح عن جبينه العرق ، ويعود إلى نفسه منقبضاً صامتاً بعد عراك ، يرمرم بشفاه تعبة : لعلّ الفنّ مصدر شقائي ، أو لعلّ الشقاء مصدر فنّي .. ليس الفن لهواً ولا تسلية ، بل صراع في صراع .. الفنّ عجلات هائلة معقّدة ، تحتها ينسحق الأنسان ..
حقاً كان ميليه شاعراً حسّاساً ، كان شاعر الدموع والألم ، رسّام الألوان الحزينة الباكية ، ولم يدرِ انّ لغته ، لغة ريشته هي لغة الأشجار والتراب ، لغة الطبيعة وجامعها ..
ومن بعيد .. بعيد يحمل له النسيم همسات جدّته التي تركها في قريته الحبيبة : انهض .. انهض .. إن العصافير تزقزق .. رنّم .. انهض ياحبيبي ، اهدأ وارسم .. تذكّر يوم الآخرة ، صلّي لله ..
يصغي ميليه الى الصوت الحبيب ، إلى الأنسام الطيّبة من عبير قريته ، فتمتلىء نفسه بالنور المقدّس ، ويذكر قريته التي أحبّها حبّاً عظيماً ، ويعود باكياً على المدينة التي شوّهت الطبيعة .. وفي طريقه تقع عينه على بركة ، وينطلق

اليها ، يحفن منها ماء ، يرشّه على وجهه ليصحو ويهدأ ، ثم يمشي مسرعاً الى مرسمه الحبيب .. يحمل ريشته فتجري مسرعة لتخلّد الايمان في قلبه ، وقدرة الله العظيمة تغمر لوحاته كلّها وتكسوها خشوعاً وصلوات ، مسلوخة من خالق التراب ومن التراب ..

حكاية من تلك الحكايات تمرّ بخاطر الفنّان ، يحمل الريشة ، يغمسها في إيمانه العميق وألوانه الضبابيّة ، فتقف الراعية منحنية الرأس خاشعة ، تصلّي للغروب ويصلّي معها القطيع ..

وفي زاوية أخرى معفّرات ثلاث منحنيات على الارض ، تحت شمس محرقة ، ينمدّ شعاعهـا الى التراب فيلهث ، تتحرّك أناملهنّ دون شكوى ، دون تعب ، ينبعث منها الأيمان والأمل ، كلّها تبحث عن الفتات ، تقف واحدة منهن تتأمّل الحياة في الشعاع الالهي الذي يعد بتحويل هذا التراب الراكد إلى حياة تسعى ، تتمطّى ، ثم تعود مرّة ثانية إلى الارض تتمتم : بعرق الجبين تأكل خبزك ايّها الانسان ..

وراءهن حصّادون يلمّون القمح الذهبيّ ، وفلاح آخر في عربته يراقب السائرين ..

وهذه الحكاية أثارت سخريَة الاوستقراطيين الذين دعوا ميليه بانسان الغاب المتوحّش .. امّا الفنّان فلم يأبه لهم ، بل

مرّ بهم ساخراً صارخاً : لن أخضع لثرثراتهم .. لن أنحني .. لن آبه لهم .. خلقتُ فلاحاً ، وسأبقى فلاحاً حتى الموت ..

لم يدرِ هؤلاء الارستقراطيون انّه انسان التراب ، ووليّ عهد الشقاء ، لم يدروا أن التراب رسول الوجود ولولاه لماتوا جوعاً .. امّا النقّاد فلا يتركون الفنّان كعادتهم ، ولم يتركوا ميليه دون ان يمدّوا إليه حروفهم ، وأشاروا إلى المعفّرات ساخرين منهنّ قائلين :

هؤلاء واقفات في الحقل كأنّهن غربان ! أمّا ريشة ميليه فزادتهن بشاعة وفظاظة !..

وقال أناس آخرون :

إنّ صاحب المعفّرات ثائر على الأوضاع الاجتماعية والتقاليد المعروفة ، إنه يحرّض الفلاحين ينبّههم ويشجّعهم على ثورة اجتماعيّة ، إنه اشتراكيّ مخيف ..

ويسمع الفنّان فيتألمّ لجهل الناس ، يرفع رأسه ليجيبهم بأصوات قُدّت من آلام : إن النقّاد عميان ، لا يدركون ما وراء هذه الكائنات ، ومن طبيعة الفنّ ان يكون صادقاً ، رسالته المحبة والسلام لا الكره والبغضاء ..

والفنّ لا يأبه للسياسة ولا للثورة ، إنه يجيء من زاوية مهملة في الطبيعة تنفتح عليها عين إنسان ، فينعزل فيها

يستوحيها ، ويدرس خفاياها واسرارهـا ، وانا لم أرَ الا التراب ، هذه الزاوية التي احدّثكم عنها دومـاً ، وأقصّ عليكم قصصها وحكاياتها ..

منذ كان الانسان والصراع قائم بينه وبـين التراب ، ولا يزال قائماً في نفوس الخالقين .. وفي هذا الصراع عظمـة روحيّة لا اجتماعيّة ، لذلك لم يكن الفنّـــان الشاعر الا إنسان المحبّة ، لم يكن الا رفيق السلام ومن أحبّ الخلق والابداع ، لم يكن الفنّـان الا صديق الفلاح ، الخادم الصبور . والفلاحون هم أبطال ملحمة ميليه الرائعة ، وهم الابطال الذين يعملون في كندرائيّتيهم الارض والسماء ، يلهمون الفنّان بالعزّة الحقيقيّة والشعر الصافي .. واصبحت المعفّرات بطلات معروفات كأبطال فرجيل وهومر ، بطلات في أعظم ملحمة ، ملحمة التراب ..

بعد أن ضعف جسد الفنّان كبر الصوت ، من هينمات الى زمزمات ، إلى هدهـدة الى زعيق ، تمطّى من التراب إلى الفضاء ..

كبر الصوت واشتـدّ الزعيق في الفضاء ، صرخ التراب ، ودوّى كالبركان الثائر : من التراب ينبت كلّ شيء ، والى التراب يعود كلّ شيء .. التراب هو الخالق الأزليّ ، التراب هو المدمّر الأزليّ .. في التراب ملحمة ، هي صراع دائم

وعلى شفاه الآلهة أخبار ..
وفي آذانها نغمات وألحان ..
هي التي منحت الشعراء والرسامين عيوناً ترى ما لا يُرى ،
ترى الفنانين في صراعهم الأليم وهم يحوّلون بأناملهم هذا
الصراع الى جمال ، يغذّونه من نفوسهم وأرواحهم ..
هذه هديّة مُرّة من الآلهة الى ذوي النفوس الكبيرة ،
والارواح المديدة ، هديّة مُرّة غير انّهـــا سامية ، تصقل
البشر ، وتجعل منهم انصاف آلهة ..
والفنّ ينمو على حبّات الألم والجهاد ، وأنامل الفنّان تحمل
الحبّات إلى سَحره ، يلفلفها بالجمال ، يجرجرها من أعماقه
قصائد وحكايات .. ولأوّل مرّة ، يشعر الفنّان بغبطة
وفرح ، ويتمرّغ في التراب كأنّ التراب يناديه ، يمشي
الى الـــتراب مستسلماً ، ويغيب في همسات انجلو: كلنا
من التراب .. جئنـــا ببطء الى الحياة .. ثم نعـــود
إلى التراب ..

ويسحب ميليه صوته سحباً يكمل جملة انجلو : ثم ..
ثم نتهدّم ببطء نحو الموت .. نحو التراب.. نحو الحياة ..

جان كورو

JEAN BAPTISTE CAMILLE COROT

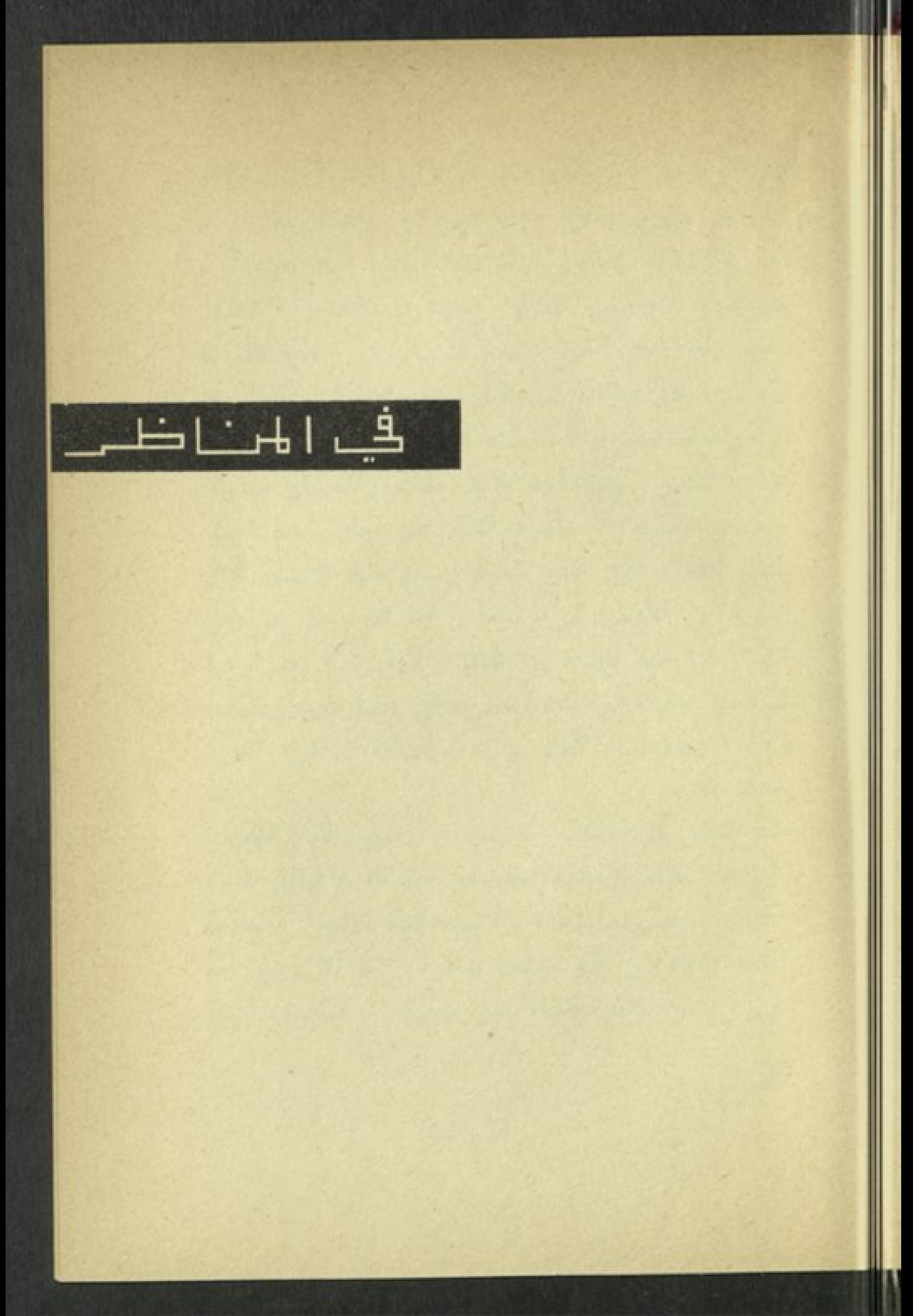
١٧٩٦ م – ١٨٧٥ م

- ولد في باريز في ٢٠ تمّوز سنة ١٧٩٦ م ، وتوفّي في ٢٢ شباط سنة ١٨٧٥ م .
- ذهب الى إيطاليا سنـــة ١٨٢٦ م ليدرس فنّ الرسم ويتملّى من الطبيعة ، ثم عاد الى فرنسا والنورماندي وغيرهما يتابع دراسته .
- كان له ولع كبير برسم الطبيعة ومناظرها ، ولم يعترف بمعلّم له إلا الطبيعة .
- هو شاعر شديد الحساسيّة .
- دعي بثيوكريتس * (Theocritus) الرسم .
- من الفنّانين الذين إتّصلوا به أو تحدّثوا عنه : جون سلفر (John Silver) الرسّام ، ألفرد دي موسيه (Alfred de Mussst) وشارل بودلير (Charles Baudelaire) الشاعران ، فكتور هيجو (Victor Hugo) الشاعر ، والأديب الروائي والمسرحيّ .
- وهو رسّام فرنسيّ ، ينتمي الى المدرسة الرومانسيّة .
- من أشهر لوحاته :

---

* هو شاعر يوناني عاش في القرن الثالث قبل الميلاد . اهتم بوصف الحقول والأرياف .

رقصــة الحوريات – منظر في نارني – منظر من إيطاليا – الغروب في التيرول – منظر مع اشخاص – الريف – ذكرى إيطاليا – الغروب – الوحدة – الراعي الصغير .


في المناظر

فتح عينيه على الشروق وفتح عينيه على الغروب .. فتح عينيه على مروج خضراء وفتح عينيه على صحارٍ عفراء .. أحسّ بالشروق كما أحسّ بالغروب غـير أنّه سار بألم لم يفهم مرّة ، وأرخى الستائر بينه وبين الطبيعة ، فاشتدّ تأجّج ولعه بمنظر آخر ، رفع الستـائر مرّة ثانية فانساب الماء من أعالي الجبال الى السفوح ، وتحرّكت أحجـار الوادي مع التيار ، فاطمأنّت نفسه ، وتمنّى لو يهرع الى الوادي البعيد ، يسند أحد الجبلين بيمناه والثـاني بيسراه ويطبقهما عليـه .. وأسرع الفنّان الى الحقول مع الغسق بشدّة نداء ، عانق جذع شجرة ومسح عنها النـدى ، ثم استوى على الأرض يغرّد فرحاً ، أما الفرح فلم يعرفه من قبل ، غزا قلبه ليطرد عنه القلق والأرق .. وبدا بوجهه الفولاذيّ وعينيه البرّاقتين وسخريته التي قلّما فارقت عضلات وجهه ! وعاد قلبه كطفل بريء ، إطمأن الى شيء كان يبحث عنه ..

أمّا الشمس فلم تستيقظ بعـد ، ارتقب طلوع الفجر ، وارتفعت غلائله الرماديّة ببطء عن عين الله ، فهلّل بنشوة وكبْر ، وغنّى وأنشد ، وأناشيده نقيّة كالفجر ، ساذجة كقلبه ، وهامس قلبه مبتهجاً بفكرة رائعة ألا وهي أنّه حيّ ، يشعر بدبيب الحياة يغمر وجوده ، فيكشف لعينيه

جمال الفنّان الأكبر ، جمال الخالق البارىء .. غنّى وأنشد كالعنادل ، يستقبل صباحاً جديداً ، أروع صباح في عمره.. يسود الكون ضباب أغبر وتـــذوب خطوط ، خطوط الكائنات ، ومعها يذوب كلّ شيء حتى تصبح الكائنات وحدة من ضباب ، لا تراها العـــين .. في الهواء طيب خافت رقيق ، يمرّ على أعشاب مهدهداً ، يرتجف الكون كلّه ومعه يرتجف قلب الفنّان الذي وجد نفسه في ذلك الصباح ، واطمأنّ قلقـــه فاهتزّت معه الأشجار تنـثر رذاذاً ، تتوّج رأس الفنّان كورو بعد أمد طـــال ، وتفيق الزهور مثقـــلة بالندى ، وتنطلق العصافير تغرّد لمولد جديد . ومن زاوية أخرى ينسري الضباب ويبدو وراءه نهر يتلوّى ، ودوحة تتمطّى ..

أفاقت الشمس فانجلى الغسق ، والتهبت السماء بنور وهّاج.. أمّا الأرض فلم تزل نديّة باردة ، تتحرّك الأكواخ ويخرج منها الفلاّحون مع عرباتهم وأغنامهم ، وصليل الأجراس وخبب الخيول ينسابان مـــع شعاع الشمس ويختفيان في الشعاب . أما الفنّان فلم يزل يغنّي ، وفجأة يقف ثم يهرع إلى كوخه ، ثم يعود مع ريشته التي لم تعصِه بل جرت بحرارة قويّة ، وعاد الفنان يغنّي ويرسم ، يخلد تلك الطبيعة الرائعة والمناظر الجميلة الهادئة ..

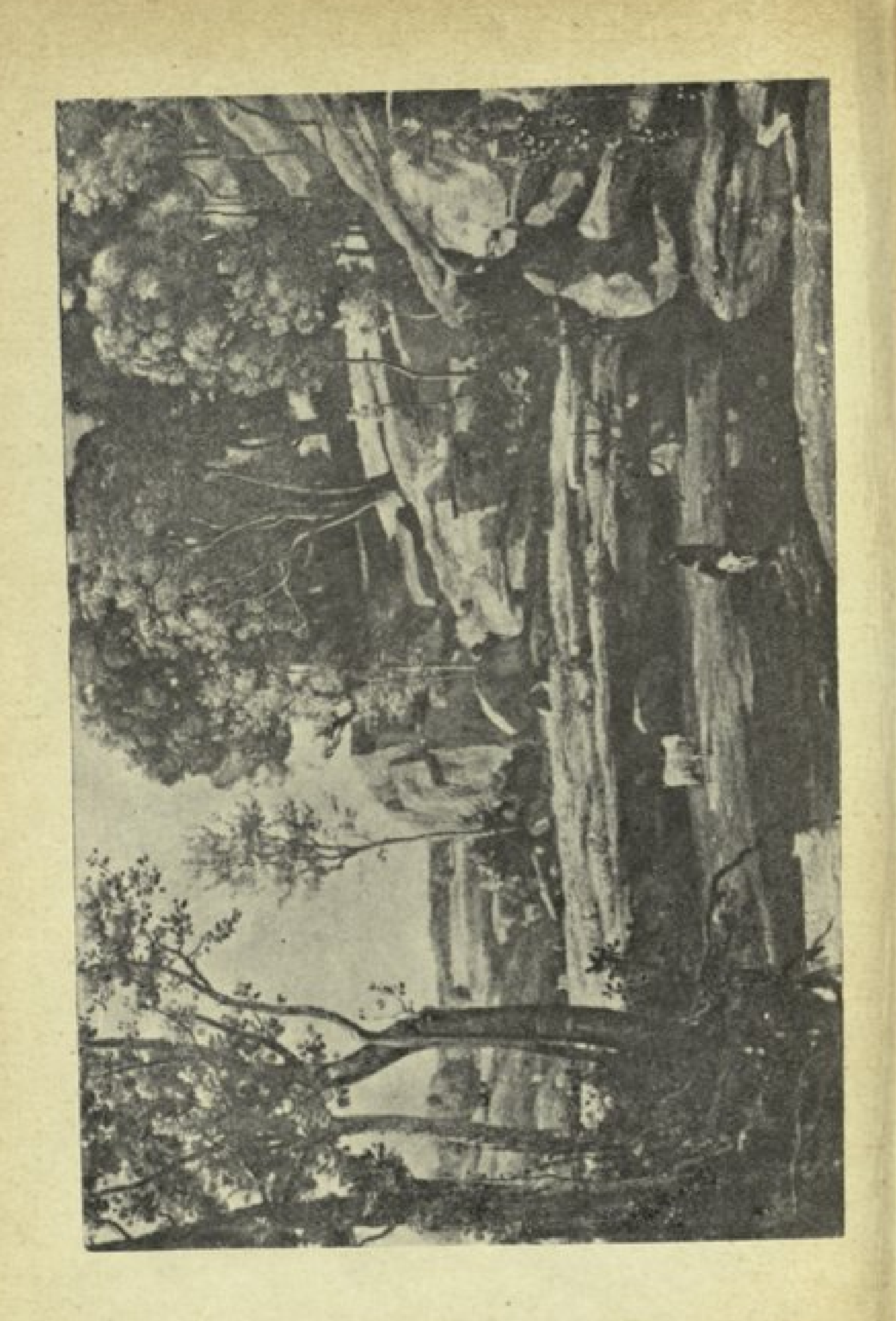
وأكبّ فلاح علـى لوحات كورو يحدّق بها بعين دهشة ، وصرخ بأعلى صوته : شيء جميل ، جميل بديع ، هذا جمال هذا جمال يا سيدي .. إنـك تجعل لوحاتـك تنطق بألف لسان ولسان ..

ورفـع الفنّان عينيه دون أن يحسّ بوجوده ، غـير أنّ العين وقعت على العين فابتسمتا راضيتين .

ارتفعت الشمس في وسط السماء ، واشتدّ شعاعها عـلى الكون ، وارتخى الهواء ، وغدا خامداً وسنان ، وملّت الزهور ذلك الشعاع فأطرقت ، وسكتت العصافير ، وساد الكون سكون رهيب ، سكوت التعب ، ومن بين هذا الصموت الثقيل علا صوت واحد ، صوت مطرقة الحدّاد في تلك القرية .. ما أشدّ تناسق ضربات المطرقة عـلى السندان ! وسرعان ما أصبحت على رتابة مملّة ، ضجر منها ، غير أنّه فطن إلى أنّ المطرقة والسندان همـا ساعة القرية ، وعاد ينتظر صموتها .. سكتت المطرقة فخرس السندان، وجاء وقت الغداء ، فاستوى الفنّان على الأرض جـذلاً يأكل نصيبه من الطعام ..

وعاد يهمهم فرحاً بعزلته الحبيبة وانطلاقه في الطبيعة ، مع كائناتها ، يحلم بمناظر جميلة ، تمنّى لو تكون حقيقة ، يخلقها بريشته مغموسة في دم فؤاد متيّم .. حمل ريشته فبردت

الشمس ، غريب أمرها ، تولد ببرودة ، وتغيب ببرودة ، امّا الطبيعة فلا تتغيّر ، غير أنّ أحوالهـا تدور ، تارة تكتسي بنور ، وتارة اخرى بظلمة .. كل شيء يتغير ، ويشتدّ ساعد الفنّان الساحر ليحيي الطبيعة بقوّته ، فتحياوتظلّ لوحاته تنطق وتفكّر ، تتحرّك وتدور كما يريدها ..
أفلت الشمس ، وتركتْ وراءها رشّة من ألوان ، لم يرُق هذا المنظر الفنّان ، أحسّ جفافاً في سمائه ، وراح يلمُّ أشياءه مسرعاً إلى كوخه ، مختفياً وراء أشجار الحور ، مودّعاً اعشاب الأرض ، منشداً مع الطيور في أعشاشها ..
تعبتْ الزهور فأغمضت جفونها ، لم تشكُ التعب كما يفعل الناس عندما يتعبون ، لم تملأ دنيـاها ضجيجاً ونواحاً كما يفعل الناس عندما يتألّمون ، بل ظلّت صامتـة تنتظر بصبر عجيب مولد صباح آخر يروي عطشها ، تؤمن بانّ الليل لن ينساها ، ولن ينسى ان يملأ كؤوسها بندى السحر ، تصبر لأنّها تنشد أناشيد الله وتسبّحه .. وتسمّر الفنّان في أرضه ، وعاد ليرافق الليل ويبحث عن عظمة مرّه ..
ألم تعلّمه الزهور الصبر ؟ ألم تعلّمه الأنتظار ؟
رشّة من ألوان عادت إلى عينيـه ، من الأصفر والأحمر والبنفسجيّ .. وهَج النهـار انغمس في الليل ، وأصبح الفضاء نسيجاً ناعمـاً رقيقاً من كلّ لون ، وعلى صفحات



منظر من ايطاليا
كورو

النهر عكست السماء ألحانها الناعمة ..
في دقيقة واحدة ذاب المنظور في اللامنظور ، وتوغّلت النهاية في اللانهـــاية ، ومن الأفنان انسلّت الحوريّات والسعالي يرقصن على إيقـــاع الحاوي ، يلتففن في أفنان الشجر .. همسات تتعالى في أذن الفنّان ان لا يغنّي :
صه ! كفّ عـــن الغناء ! لا تُلقِ الرعب في قلوبهن الصغيرة ، كفّ عن الغناء لئلا يهرولن إلى أوكارهن ..
في تلك الهنيهة الحيرى ، في هدأة الليل ، هبطت نجمة من السماء كالسهم ، اخترقت ماء بركة هناك ، علا حفيف بسمات ، هوت نجمة ثانية .. ثم نجمة وراء نجمة ، وحطّت النجوم كلّها في البركة .. أمّا الليل فظلّ دامساً هادئاً .
ليل وأوهام ورؤى جديدة للصباح الطالع ، طلاسم وأسرار لمّها الفنّان لينثرها في الغد أرواحاً خالدة ..
إلى الغد أيها الفنّان .. يتململ الفنّان كأنه في حلم ، يطوي قدميه ليعود إلى كوخه .. إلى الغد أيّها الفنان .. إن أبانا قد أطفأ القناديل ..
كان يقضي كورو كل يوم من أيّامه مع الطبيعـــة ، من الصباح حتى المساء ، ومن الشروق حتى الغروب ، يحدّث الكائنات وتحدّثه ، يستمدّ منها قوّة ، وتستمدّ منه قوّة ، يطمئنّ إليها وتطمئنّ إليه ..

كورو شاعر فنان ، هام في أعماق نفسه ، يبحث عمّا يرضي هذه النفس القلقة ويرويها ، حتى اهتدى إلى دروب الطبيعة يخلّدها .. وتخلّده .. واستطاع ان يظهر دقائق الطبيعة ، استطاع ان يترجم جغرافيّتها ونفسيّتها .

كان يتأمّل بعينين ثاقبتين ذات كل شجرة ، كلّ زهرة ، كلّ قرن من الحشيش ، وكلّ خطّ من خطوط الكائنات .. أحب الطبيعة ومناظرها ، آمن بها وجعلها تنطق وتفكّر ، وأجمل ثناء سمعه في حياته ، هو ذلك الثناء الذي سجّله في الهواء فلاح ساذج ، وهو مكبّ على لوحاته :

سيّدي ،أنت تجعل لوحاتك تنطق بألف لسان ولسان ..

ويهزّ الفنان رأسه معجباً بلوحاته الحيّة .. ويسمع صوتاً فضولياً يسأله :

ولماذا لم يكن لك حبيبة ؟

يرفع رأسه ويجيب بصوت هادىء مؤمن :

جعلت الطبيعة حبيبة لي ، لها وحدها وهبت حياتي ، وسأظلّ مخلصاً لها ما حييت ..

لا يبقى فنّان ولا غير فنّان على قيد الحياة ، وسرعان ما يفاجىء الموت الحياة ، ويخطف أعزّ ما عندها من عباقرة ، وتصرخ الحياة في وجه الموت ، وتقف خرساء أمام قوّة أعظم من قوّتها ..

ومن يدري ، لعلّ الفنّان يجد راحة في الموت ، يجد شيئاً جميلاً ورؤىً جديدة ..

وتململ الفنّان في فراشه يئنّ من وطأة المرض ، يسمع نداءً حلواً ، نداءً اعتاد أن يسمعه ، نداء الطبيعة حبيبته ، فتبرق عيناه وهو يتمتم :

بالرغم عنّي أمضي .. غير أنّ الطبيعة وعدتني .. أتمنّى من كلّ قلبي أن أجد مكاناً في السماء ، مكاناً لمناظر جديدة لم أرها من قبل !

وأسدلت أهدابه على عينين ملؤهما بريق غريب .. بريق الخلود ..

فنسنت فان غوخ

VINCENT VAN GOGH

١٨٥٣ م – ١٨٩٠ م

▲ ولد في غروت زنديرت ( Groot zunder ) هولندا ، في ٣٠ آذار سنة ١٨٥٣ م ، ومات منتحراً في ٢٩ تموز سنة ١٨٩٠ م .

▼ ذهب الى لندن ليعلّم اللغة الفرنسية في إحدى المدارس الصغيرة .

▲ رحل الى باريز يدرس الفنّانين الانطباعيّين .

▼ تأثر بالفنّ الياباني .

▲ كان يحبّ أخاه ثيو ( Theo ) حبّاً عظيماً ، وكان ثيو يبادله حبّاً بحبّ ، ويمدّه بكل مساعدة .

▼ أحبّ موسيقى فاغنر ( wagner ) وأحسّ بعلاقة متينة بين هذه الموسيقى وألوانه .

▲ اختلف فان غوخ وبول غوغان ( Paul Gaugin ) في حديث عن الفنّ ، وفجأة ضرب فان غوخ غوغان بالقدح . وفي اليوم الثاني ندم على ما بدر منه ، فاقتصّ من نفسه ، وقطع إحدى اذنيه !

▼ أصيب بانحطاط في أعصابه ، فاضطر الى دخول مستشفى الامراض العقليّة في ايار سنة ١٨٨٩ م ، في سانت رمي ( Saint-Rémy ) حيث قضى عاماً واحداً .

▲ كان انتحاره صدمة عنيفة لثيو ، ومن جرّائه أصيب بشلل ..

▼ من الفنانين الذين اتصلوا به او تحدثوا عنه :
انطون موف ( Anton Mauve ) وغوغان ، وهنري روسو ( Henri Rousseau ) وتولوز لوترك ( Toulouse-Lautrec ) الرسّامون ، ارفنغ ستون ( Irving Stone ) الأديب الروائيّ ، اندريه لِكليرك ( André Leclerc ) النقّاد .

▲ وهو رسام هولنديّ ينتمي الى المدرسة الانطباعية ( impress:ionism) .

▼ من أشهر لوحاته :
الشمس في الظهيرة ــ الكرم الأحمر ــ زهور عبّاد الشمس ( أو دوار الشمس ) ــ حقل القمح ــ منظر طبيعيّ ــ صورته ــ غرفة فان غوخ في آرل ــ جسر أنجلوا في آرل ــ ــ الحديقة العامة في آرل ــ زهور ــ الشجرة ــ الحصاد ــ الراعية ــ طريق السرو ــ مقهى الليل ــ البستان ــ الليلة المتلألئة ــ الجسر .

# في الشمس

قلب كبير وحيد .. قلب ينبض بين جدران سجون قاتمة ، يتمرّغ في طوايا نفس صادية ، لا يعرف ما يريد ، بل يبحث بألم وألم ، وحَبَاب الألم من أغوار أعماقه الهامسة.. وعلى أهدابه المرتعشة ألف سؤال وسؤال ، وبين شفتيه القلقتين ألف صرخة وصرخة :

من أنا ؟ من أكون ؟ لمَ خلقت ؟ لمَ ؟ لم لا أعرف ؟ لم لا أعانق الحقيقة الكبرى ، وأضعها في قبضة يدي ؟ أحس دبيباً في عروقي ، والتواء في عظامي ، وغصّة في نحري .. لله ، لله ، ما هذا ؟ ما هذا ؟

ذاك داء دفين ، يرقد مستأنساً بالنفوس الحسّاسة الرقيقة ، والأرواح الخلاّقة المبدعة .. ذاك داء مسعد يبشر بالخير الطافح ، والخلود الازليّ ، يشيع المحبة في الاجواء الشقيّة .. وما هذا ؟ ما ندعوه ؟ لمن تكون المحبّة ؟ بن الايمان ؟ ومن ذيّاك اللامنظور الذي يندفع اليه الفنّان مسحوراً ، ذاهلاً؟ وترنّ في أذنيه كلمات سبنوزا (Spinozo) الفيلسوف .. وأمّا الحقيقة الكبرى فهي محبّة الله .. لا ترتقب الله ان يبادلك محبّة بمحبّة ..

محبة الله هي الحقيقة الكبرى ، وقد باتت في شغاف قلبه ، وألهبت أوتار عقله ، فعزفت تنشد المحبّة في كل كائن ..

أمّا ذلك الحبّ الجارف فهو الذي كبّله ، ونحّاه عن الناس ، وأبعده عن ضوضائهم الملهي ، وصخبهم المضني ، معتصماً بوحدته الحبيبة الى قلبه .. وهل الحياة سهلة ؟ ما أربنا في هذا الصراع الدائب ؟ ما هو المصير ؟ ..
ولمعت عيناه بدمعتين ، صحا وهو يحدق بالموت الذي كان يسحب ببطء روح أبيه ، وهبّ كالأمواج عاصفاً هائجاً.. ونفر العرق من جبينه المشرق ، عرق الجهـــاد ، عرق المعرفة ، عرق الفشل في الحياة :
الموت ، الموت ، آه ما أصعبه ! وما أقساه ! والحياة ، هذه التي يسمونها حياة ، انها أصعب ، أقسى من الموت !
واندفع ينازل الحياة ، يصارعها ، يبحث عمّا يطمئن نفسه القلقة .. يبحث عمّا يحسّه في ذاتـه .. سعى الى البؤساء والفقراء .. سعى يؤاسيهم ، يخفّف عنهم الشقاء ، عاش بينهم مجيباً صدى نفسه الملحاح ..
وقف حزيناً تهزّه الرحمة ، وهل يحيا الحبّ العميق بـلا حزن ؟ وسرى في عروقه الحزن كما سرى الحبّ ، وأصبحا معاً رفيقين لا ينفصلان .
لم تهدأ نفسه القلقة .. لم تقنع روحه الباحثة ، تعب .. فصرخ بأعلى صوته :
أنا فـــاشل ، فاشل ، أنا فاشل ، أحسّ ولا أدري مـا

أحسّ ... إذن ، لم جئتُ إلى هــذا الكون الرهيب ، الرهيب ؟ ما هدفي ؟ ما غايتي ؟

وأكبّ على الكتب يقرأ ويقرأ ، باحثاً عن حقيقة نفسه ، عن شيء تاه في أغواره ، حتى شعر بقبس يدنو مع بعده .. ونداء يصرخ مع خفوته .. نفض عنه غبار الزمان ، ووقف صامداً ، هاتفاً ، إنّه سيساهم في تراث الأنسانيّــة .. سيجعل من لوحاته عالماً جديداً ..

تحرّكت أنامله برغبة ملحّة ، تحمل الريشة .. أما ريشته الخشنة اليابسة ، فلم تتحرك ، ولم تــترك وراءها خطّاً واحداً . ووقف حزيناً ، ثائراً غاضباً .. ضرب بكفّه الريشة ، سحقها تحت قدميه ، وراح إلى قلمه ، يكتب الى أخيه ثيو :

حبيبي ثيو .. لا تفكــر كما يفكر بيّ النـاس ، أنا لا انكر الوجود ولا أكفر به ، بل اعتبر نفسي مؤمناً ، مؤمناً .. أنا مؤمن يا ثيو حتّى في كفــري ! وشوقي الوحيــد أن أكون نافعاً ، صالحاً ، مساهماً في حلّ طلاسيم الحياة ..

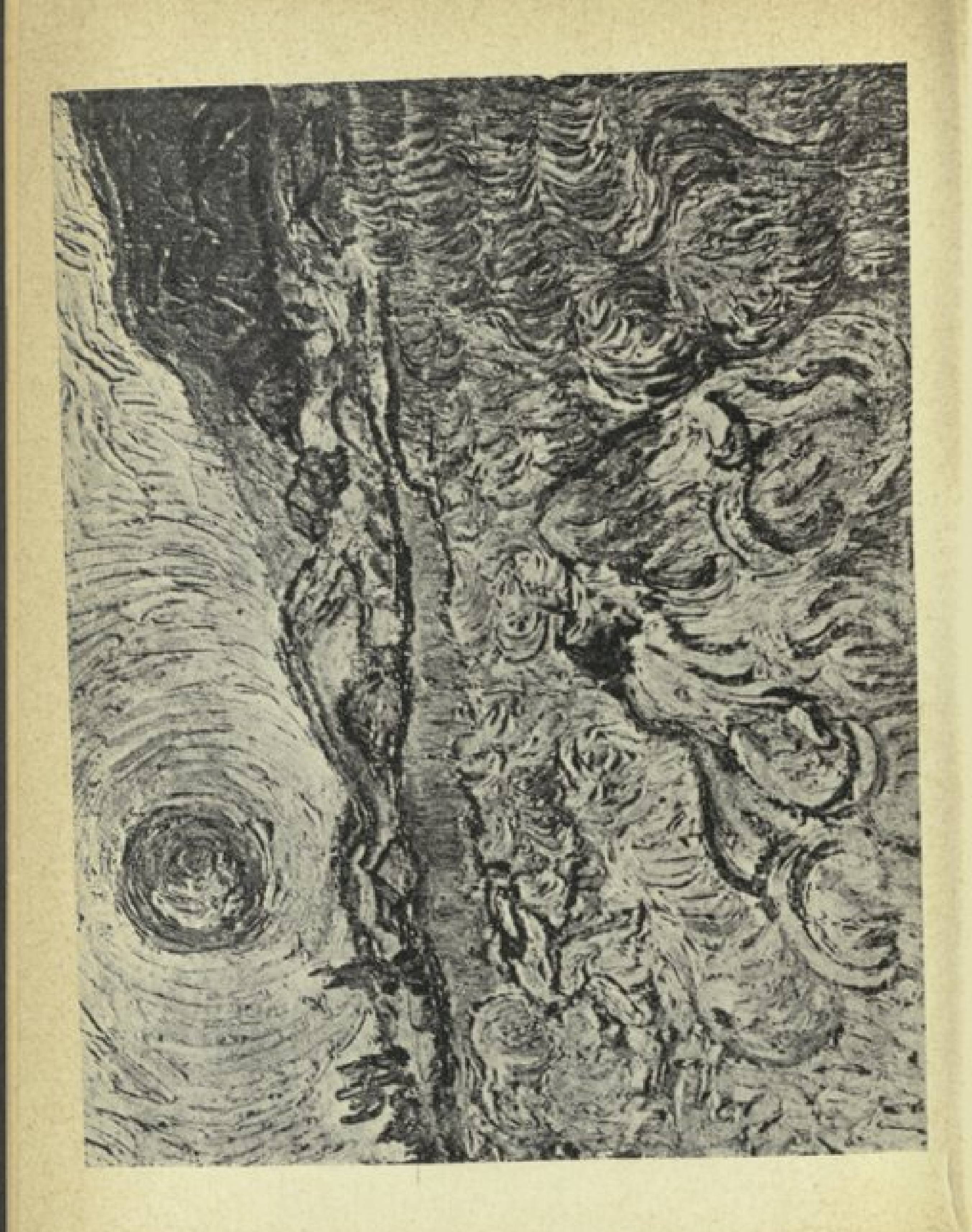
ما أحوجه إلى أخيه ثيو ! وما أحوج نفسه الفيّاضة إلى من يلقف ما يطفو منها ! كانت رسائله إلى أخيــه ملأى

بالعاطفة ، زاخرة بكل ما شاهد وما رأى ..

ظلّت أنامله عطشى تتمطّى حتّى جذبته جذباً قوياً ، فلبّى النداء ، وسقاها من ألوان الزهور رحيقاً حتّى ثملت ، وداوت ترسم وترسم .. وبعد فشل ، ضرب ريشته بقوة روحه ، ومزجها بألوان دكناء ، ثابتة ، وصوّر مع الآفاق والسماء والسهول ، والغابات ، لكنّ نهمه لم يُروَ ، ونفسه القلقة لم تطمئن .. ظلّ معذباً ، يبحث في الأرض وفي السماء ، يبحث عمّا يحسّ في ذاته ..

بحث في حفنة رمل ، ورشّة ماء ، وكومة غيم .. هذه كائنات ، تستحقّ أن يتصوّف في سبيلها الأنسان ، لينقل الشعر الملتوي في زواياها ..

ومشى .. مشى في الطبيعة حاملاً لوحته وريشته ، ليصيد ذُروات الطبيعة ، مرّة في هدوئها ، ومرّة أخرى في ثورتها .. حيناً في صيفها ، وحيناً آخر في شتائها .. كان يسير في الهواءالطليق مع الضباب القلق ، مع العاصفة الزؤور .. أمّا رفاقه الفنّانون ، فكانوا يلتجئون الى دورهم خوفاً من العاصفة ، أمّا هو فكانت المياه المالحة تلفّه ، والرمال المجنّحة تغمره ، والمطر الهاطل يبلّله ، أمّا الصقيع فكان ينخر في عظامه نخراً ، وتمتلىء عيناه وأذناه بذرّات الرمال الهائجة .. أحبّ في العاصفة كلّ شيء



الحصاد
فان غوخ

لن يزعزعه أحد ،ولن يمنعه الموت ..
صارع نفسه ، وفشل .. صارع الطبيعة ، وفشل ..
ثم عثر وكبا .. وبعد أن أضناه السفر ، أوى إلى غرفته
رائحاً جائياً ، والقلق يلفه لفـــاً .. سقط على الأرض
منهوك القوى ، يفكـّر على هينته ، حتى رأى شيئــاً ،
رأى ذُروة فنّه ..
شُعاعة غريبة سعت من النافذة ، دخلت في قلبه ، فاعترته
هزّة عنيفـــة ، لم يحسّها من قبل ، وتلاها اطمئنـان ثم
هدوء .. وجد نفسه .. وجد نفسه في ولادة جديـدة ،
رأى فيها ما يريد .. ها هي الشمس التي كمنت في نفسه ..
ها قلبه يطير إليها ، إلى الشمس .. أحسّ شيئاً في جوهر
شيء .. وجد الشمس ، حبيبته الخالدة .. حدّق وحدّق
بأعماقها ليرى ، ليفهم ، ليرسم ..
رسم كلّ النهار ، صارع كلّ الليل ينتظر طلوع الشمس ،
وتُفيق الشمس بعد ليل طويل ، ويهبّ الفنان ليستمدّ من
لونها عبقرية وخلوداً :
ما أجمل الأصفر ! ما أجملّ اللون الأصفر ! ما أروعـه !
هو السرّ الذي يفسرّ السرّ .. هو رمز الحرارة والنور ..
رمز المعرفة .. لون الغبطـــة والعبقرية .. لون الفنان
الأصيل .. لوني أنا !

اهتزّت ريشته بكبر ، تنفض عنها مـــا يجول في خواطر
أنامله الحسّاسة من إختبارات إنسانية ، حيّـــة ، معبرّة
باللون الشمسيّ عن السلام والحقيقة ، والوحدة والألم ..
أمّا شعوره الدينيّ فيظهر جليّاً في زهوره الهادئه ، المؤمنة ،
وفي ألوانه الصفراء الخاشعة .. وفي قلبه المطمئنّ بعـــد
صراع ، وفي نفسه الحالمة بعد ثورة ..
مشى الفنّان باتّئاد ، تغمره الشمس .. أمّا عيناه فحمراوان
تحدّقان ابداً بسَواء الشمس : آه .. ما أجمل الشمس يا ثيو !
ما أجملها ! تقرع الرؤوس ، تذيب العظام ، تترك الأنسان
في نشوة مدهشة ..
وراح يبحث عن الشمس وألوانها ، يقتنص جمالاتها في جميع
حالاتها ، في ربيعها وخريفها ، في شتائها وصيفها .. في ليلها
ونهارهـــا .. لن يقف في دربه أقوى القوى ، يصمـد
امام العاصفـــة في أوج دورانها ، حيث تقلع الحجـــارة
والصخور ، تقهقه في وجهه ، وتسخر من قلبه ، ولم تدرِ
أن العاصفة التي في قلبه أشدّ وأقوى من عاصفة الفصول..
هي عاصفة الحبّ للشمس ، وعاصفة الحبّ تفوق عواصف
الأكوان جمعاء ..
امتلأ قلبه الكبير بالفرح والحزن ،
امتلأ قلبه بالحبّ الذي لايعرف شكلاً ، ولا حدّاً ، الحبّ

في أعمق معانيه ، وأروع مظاهره .. هو الحبّ المقدّس بين الانسان والطبيعة ..

من الأرض تنبعث شموس أقوى من شموس السماء ، تشعّ منها الحياة ، بريق الحياة ، بقوّة تميل الواحدة على الأخرى ، بنغم صاخب تحيا جميعها ، وتنبعث مرّة ثانية تحدّق بالناس وكلها عيون تدور كما تدور الشمس ، وتشعّ كما تشعّ الشمس ، وتعطي كما تعطي الشمس ..

ولم ينجُ الليـــل من لهيب الشمس ودورانها .. والاشجار تصعد من الارض كأنهـــا أجيج من اللهيب ، تتحرك وتدور كما تدور السماء . كلّ نجمة حولها حلقات ، حلقات ، كلّ نجمة تدور حتى يخالها الانسان دوّامات ، تقذفه في اعماق الفضاء ، ويدور معها كما تدور .. ويتعب ويلهث ، ثم ينحني مغمضاً عينيه ..

ويرفع رأسه ليشمّ أريج الربيـع ، فيصحو مرّة ثانية ، ويتمطّى قليلاً ثم يفرح ، يفرح بالبستان الجميل الذي يضمّ أغصاناً ، تحمل زهوراً بين برعم وفاغم ..

جـــذوع الشجر زرقاء كازرقاق السماء ، كلّها منطلقة الى الآفاق ، وبعد ارتياح نعود الى الارض ، فتصدمنا الأرض ، وتكسّر أهدابنا على صلابة الفنّان وقوّته .. وواقع الفنّان ان ينتقم من الأرض التي لم تكن صديقة له ، علّمتـــه

القسوة والآلام ، فهو كسائر الفنّانين الذين تنبذهم الارض ، ويسخط عليهم الناس ، فيسخطون بدورهم على الأرض والناس معاً ، ثم يبحثون عن أرض غير ارض الناس ..
ويدخل الفنّان بعد منتصف الليل الى مقهى ، ويجلس ليحكي مأساة الحياة ، ومأساة البشر ، وينكمش امامه الناس ، وتنوس القناديل من السقف متأرجحة ، ويدور نورها باستمرار ، ومن تلك القناديل تشعّ الأرض بلون النور ، ويتحدث النور للنور .. نور اصفر ، وثان اخضر ، وثالث اسود ، وينطلق من المقهى قوّة ، قوة شمس النهار .. غريب ذلك اللون !
إنه لون الفنان الذي من أجله عبد الشمس ، ومن اجله هرع الى حقول القمح ، يتملّى بلون القمح الأصفر ، ومن اجله دار بريشته دورات ودورات ، إنه لون الفنان الذي أراد ان ينطلق ، فانطلق مؤيداً فكرته ، مظهراً ما حاول الفنانون إخفاءه ، مظهراً نفسيته بوضوح ، غامساً ريشته في الشمس ، معين الحياة الأبديّ .
ظلّت ريشته تعبّ من ذيّاك الفيض الالهيّ ، من الشمس وألوانها .
وظلّت الشمس تشدّه إلى صدرها شدّاً ، فيرنو إليها بحبّ عميق .

هكذا كانت عاصفة الحب تدور في نفسه وفي أنامـــله .
ويدور معها الفنّان حتى يغمى عليه ..
مجّد الفنّان الشمس وخلـّدها ..
ما أرهب بني آدم ! لقـد سخر الناس من لوحاته ، من عاصفته ، من شمسه ، فهام على وجهـه هرباً من الناس ، يقصد محجّته .. وقف أمام شمسها محدقاً بها ..
سمع من أعماقها نداء حلواً ، فلبّى النــداء .. تقلصت أنامـــله ، وأطلقت على رأسه رصاصة الانتصار ، فانحنى ميتــاً ..
تصاعـد من جسده لهيب ، ضاع في الفضـــاء الرَحراح ، وذاب في شعاع النهار .. هكذا قضى فنسنت فان غوخ ..
هكذا قضى الفنّان بعد جهـاد وعذاب ، بعد معرفـة .. عرف نفسه ، ووجد ما يريد ..
ما أرهب الشمس !
إنها أعطته الحياة .. وهي .. هي التي سلبته الحيـاة ..
لن يموت من أحبّ حبّاً عبقريّاً ..
لن يموت من خلـّد الجمال المطلق ..
لن يموت من غمس قلبه في شعاعات الشمس الطاهرة ، من استطاع أن يقف الدهور محدقاً بعينها ..
لن يموت من أعطى الحياة إيماناً جديداً ، ومعنى جديداً ..

قضى فان غوخ شهيداً في سبيل الفنّ ، في سبيل الخلق والابداع ، في سبيل المعرفة القصوى ، وفي سبيل الجمال المطلق ، والحقيقة الكبرى ..

سقط شهيداً خالداً ، مضرّجاً بدمائه أمام حبّه العبقريّ ..

ما أرهبَ الشمس !

إنّها أعطته الحياة ، وهي .. هي التي سلبته الحياة ..

جيمس وسلر

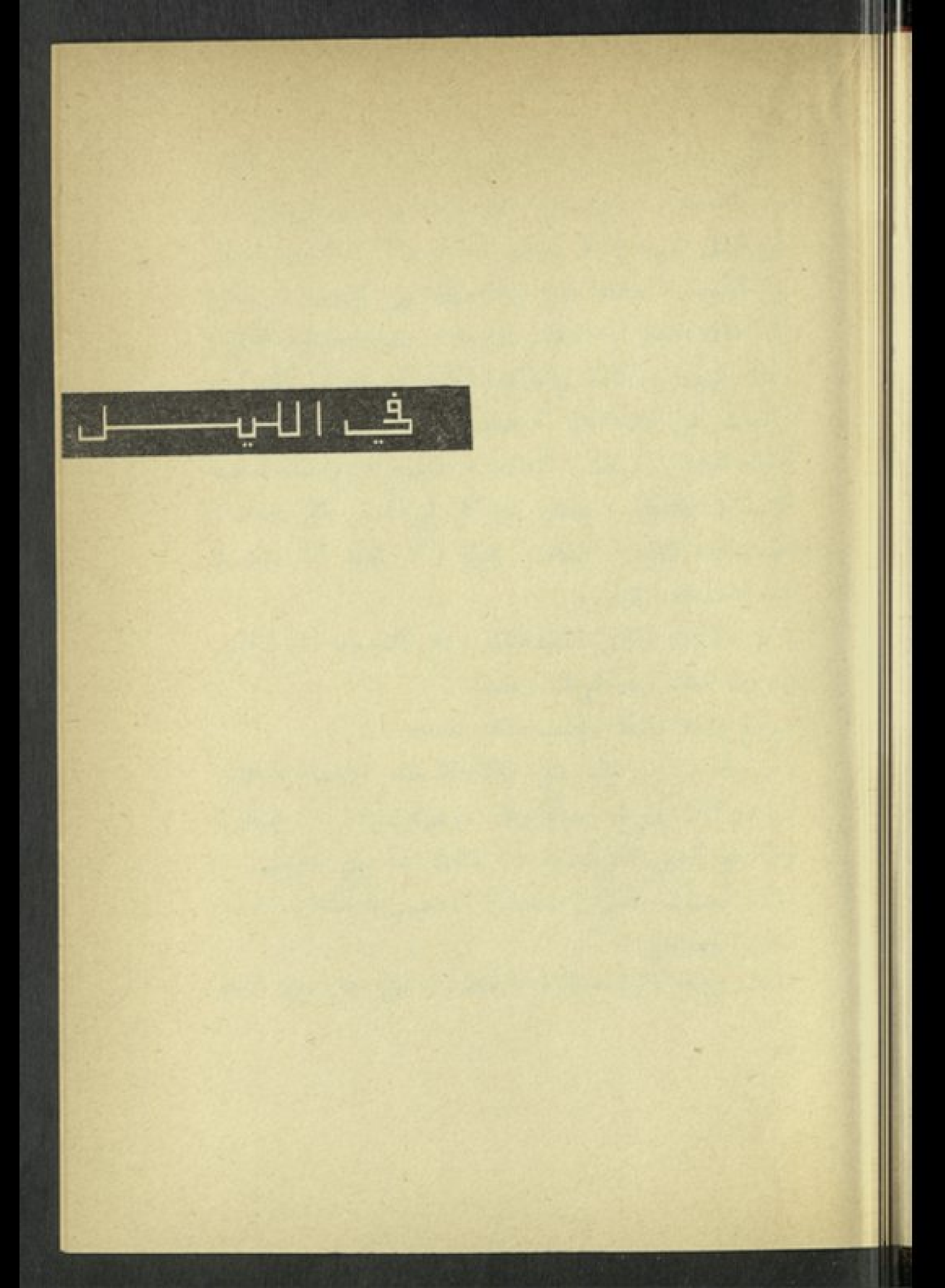
JAMES ABBOTT MCNEILL WHISTLER

١٨٣٤ م – ١٩٠٣ م

- ولد في لوول ( Lowell ) ماساشوستس (Massachusetts) في ١٠ تمّوز سنة ١٨٣٤ م ، وتوفي في ١٧ تمّوز سنة ١٩٠٣ م .
- درس فنّ الرسم في لينغراد وباريز .
- عرض لوحاته في صالون المرفوضين في باريز ، تحت رعاية نابليون الثالث ، وزاوته الامبراطورة أوجيني ( Eugénie ) .
- رحل إلى لندن ، وفي سنة ١٨٦٣ م استقرّ هناك حتّى وفاته .
- كان صديقاً لأوسكار وايلد ( Oscar wilde ) الأديب المسرحيّ ، وكلاهما عرف بسخرية لاذعة ، غير ان هذه الصداقة لم تدم طويلاً .
- زار كورسيكا وهولندا وغيرهما .
- في سنة ١٨٨٦ م انتخب رئيساً لجمعية الفنّانين البريطانيّين .
- من الفنّانين الذين اتصلوا به أو تحدثوا عنه :
  توماس كارليل ( Thomas carlyle ) وجون رسكن النقّادان والأديبان ، وأوسكار وايلد .
- وهو رسّام أميركيّ المولد ، إنجليزيّ الموطن ، ينتمي إلى المدرسة الطبيعيّة الواقعيّة .

• من أشهر لوحاته :

فتاة بيضاء – شاطىء بريطانيا ( في فرنسا ) – على البيانو – صورة أمّي – صورة كارليل – قطعة ليليّة في الأزرق والذهبيّ – قطعة ليليّة في الأزرق والأخضر – قطعة ليليّة في الأزرق والفضيّ – فتاة زرقاء – تآلف بين البنّي والأسود .


في الليل

ولد رحّالة يدور من قارّة إلى قارّة ، لا يعرف الهدوء ولا الأستقرار ، فهو ابن العالم ، وشبّ رحّالة ينتقل من طبيعة إلى طبيعة ، لا يعرف الملال ولا الكلال ، فهو ابن الطبيعة ، وصحا قلبه يشدّه إلى شيء مجهول ، يوتّده إلى أعماق الصخور ، وغلت روحه ، ورفرف قلبه القلق ، وعلا كريره ، كأنّه في نزاع ، لكنّه لم يهتدِ إلى المجهول ، وانبعث من قلقه الفائر ، قهقهـات ساخرة ، هزهزت أرجاء الفضاء وفرّقت الرفاق ، فملّوه ، وامتدّ لسانه كالسياط الحديدة ، يسخر من كل شيء ، من كل إنسان .

أمّا والدته النقيّة ، فكانت محبّة ، لا تريد أن يبتعـد عنه الاصدقاء فتقول :

يا ابني الحبيب ترفّق بأصدقائك ، هم كثيرون ، لكنّهم ينفرون منك ويتركونك وحيداً .

ويرفع رأسه هازئاً ويجيب بكل هدوء :

ومن يأبه .. من يأبه لمثل هؤلاء السخفاء الأغبياء ، الذين لا يدركون روح الحياة ولا جوهرهـا ! . السخرية ترفّه عن النفس الحزينـة .. شتّان ما بيني وبينهم .. هؤلاء يعيشون دون إحساس ، دعيهم يا أمّاه .. لن يكونوا أصدقائي ! ..

ظلّت روحه فائرة ، ثائرة ، قلقة ، حتى حمل بين أنامله

الريشة ، واندفع في الطبيعة ، يبحث عمّا يعزّيه ، تاركاً وراءه قهقهاته وسخرياته ، وسرعان ما اطمأن إلى الطبيعة ، ووجد فيها راحته وسعادته ، فشاركته عبقريّته الفريدة ، وأدركت روحه العميقة ، وسخريته اللاذعة ، وشخصيته الرائعة ، وراح يرسم ، ويرسم .. هدأ قليــلاً ، يجسّ نبضات الطبيعة ، يسمع منها ألحاناً عجيبة ، يبصر بقلب نفّاذ .. وتنفجر من صدره ضحكات مرحة ، تخفّف من تشاؤمه العنيف ، وآلامه المبرّحة ..

في الطبيعة وجد محجته ، وجد كعبته ، آمن بقوتهـــا ، وجبروتها .. آمن بكفر وشك ، لم يكن مؤمناً كما كانت والدته المؤمنة الصالحة ، التي لا تعرف محلاً الا الكنيسة ، بل كان كافراً وثنياً في نظر والدتـه المؤمنة الساذجة .. لكلّ إنسان محجّة وكعبة ، لكلّ إنسان عبقريّ دين ، وليس الدين الموروث ديناً يهدّىء النفوس ، ويرقّيها .. وليست الأناشيد الدينيّة أناشيد وحدها تسبّح الله ، بـل كانت كلّ لوحاته صلوات ، وكانت ريشته الجامعة ، تسبّح العظمة والجمالات ، وكانت الطبيعة هيكله ومحرابــه .. والطبيعة الرائعة تسمعه الملحنات والاناشيد ..

لم يدع اليأس يتسرب إلى قلبه بالرغم من حزنه الطويل ، وألمه المضبض ، وجوعه المفري ، بـــل كان كالعملاق ،

كالمارد ، يحطّمها تحت أقدامه بقهقهة واحدة ، ويسخر من القدر ، كأنّه يريد أن يصارعـــه في كلّ همسة من همساته ، وفي كلّ حركة من حركاتـــه ، وفي كلّ غطّة من غطّات ريشته ، إنّه خالق الملحنات البيضاء والسوداء معاً ، فالملحنات البيض تثلج صدور السود ، واللون الاسود ، يومىء الى اللون الابيض أن لاينسى دنيا الآلام والاحزان..

حقاً كانت لوحاته عزاء للبؤساء ، وانتصاراً للأشقياء ..

لم يأبه للمجاملات ولا المرياء ، هرب منه الناس اتّقـــاء لسانه الحاد ، أمّا أصدقاؤه فقد ابتعدوا عنه ..

ما أسرعَ ما كان يلمّ الاصدقاء ! وما أسرعَ مـا كان يفرّقهم ! ويهزّ رأسه قائلا : مَنْ يأبه لمثل هؤلاء السخفاء الذين لا يفهمون دقائق الروح ومعاني السخرية .. وينطلق وحيداً غرداً الى مرسمه ، يسجّل على لوحاته قطعاً رائعة ، تمسخ الضعف والفقر والتشاؤم ..

كان تشاؤمه في الحياة تشاؤماً بنّاء ، لا يعرف الهدم ولا الدموع ولا الخراب ، بل يأخذ منها كلّها حياة ، فتزيد حياة على حياة ..

يحبّ اللون الليليّ ، يجد فيه هناءة وسعـــادة كبرى ، يذوب في القوة العبقريّة الخلّاقة ، وفي الألهام المبدع . بالرغم من قهقاته المتعالية ، وسخرياته المتواصلة ، ومزاحه

العنيف ، كان يحبّ العزلة ، يحيط نفسه بهالات من الضباب ، تنعقد الغيوم عندما يصمت ، وتنفرط عندما يقهقه بمرح ساخر ، حتى قيل إنّه فيلسوف ، أكثر بصيرةً من فلاسفة القرن التاسع عشر أجمعين .

إنتقل من باريز إلى لندن ، وحطّت قدماه هناك على أرض لندن ، وأطلق قهقهاته واحدة غِبّ واحدة ، حتى شعرت الطبيعة بوجوده ، فاهتزّ ضباب لندن العنيد الكثيف ، وتفرّق .. وفزع منه الناس ، وارتدّوا عنه خائفين ، لم يفهموا هذه الشخصيّة الغريبة ، وهذا التصرّف الشاذّ ، لم يدركوا فلسفته ، ولم يفهموا ملابسه الثائرة ، بل عدّوها ضرباً من الجنون ..

صعق اللندنيون عندما رأوه حاملاً مظلّتين : إحداهما بيضاء ، والثانية سوداء ، وقد سئل عن السبب فأجاب : إنّ الطقس ، طقس لندن الخائن اللعين ! أجبرني على أن أسلّح نفسي ، وأتّقيهما من شروق الشمس ونزول المطر في آن واحد ..!

أحبّ الفنّان الليل ، وفي الليل يذوب كلّ كائن ، يتلاشى كلّ إنسان ، كلّ شيء .. في الليل يهدأ قلبه المعذّب وتتفتح بصيرته المِلحاح ، ويرى ما لا يراه بالعين ، ويسمع ما لا يسمعه بالاذن ..

لم جمـــال السماء والأرض ، حفظهـــا كلّها ، ونحتها في روحه القلقة لتهدأ ، وحملها الى مرسمه لينثرها في الغـد ملحنات رائعة ، وقطعاً ليليّة جليلة ..

وبعد .. حوّل المدنيون دهشهم بتصرفاته الشاذّة إلى إعجاب بفنه الذي بدا فيه مخلصاً ، صادقاً ، مؤمناً بانتصار عظيم ، إنتصار الانسان على القـــدر ، وسحق الآلام والأمراض والفقر ، وتحويلها الى روائع خالدة ، لا يحسّها إلا الموهوبون العباقرة ..

عبّ من الليل ما شاء وراح راهب الليل وسلر في أعماق الليـــل يجلس أمام شواطىء النهر ساعات في الدُغشـــة المتلألئة ، يحفن منها جالات ، وفي النهار يضعها على لوحاته خالدات ..

هذه النجوم ترمي شعاعاتها رشرشات ، من الأزرق حفنة ، ومن الأصفر حفنات ، تركد على جسر هنـــاك ، إنّها ملحنات صامتة ، وثنائيّات ، فيها تتكلّم الأرض ، وتتحدث عن أسرارها السماء ، وتتهامس القلوب الواعيـــة بماهيّاتها ، هذي ملحنات صادقة ، لا نرى فيها خطأً واحداً مهملاً ، ولا لوناً واحداً نافراً ، ولا فكرة واحدة نابية ، هذي القطع مزامير الحياة الصادقة ..

غمس الفنّان وسلر ، راهب الليل ، قلبه في الليل ، في سواد

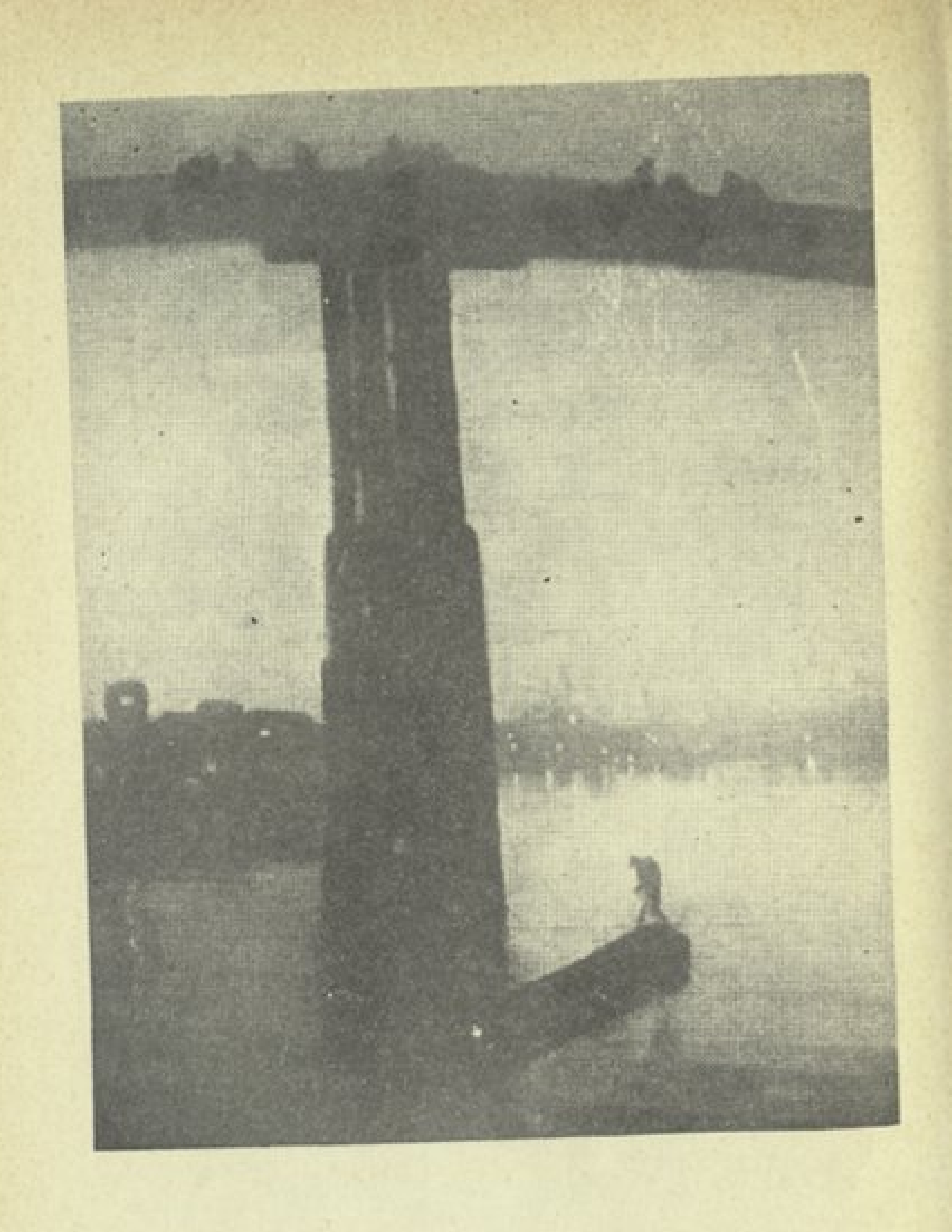
الليل ، ولم ينس غمزات النجـــوم وابتساماتها ، لم ينس اعماق الليل وعظمته ، عندما يستوى فيه جميع الكائنات ، فتبدو الأكواخ الحقيرة قصوراً شـــامخة ، والصعاليك ملوكاً .. كلّ شيء ، كلّ إنسان يخضع لهـــذه السيطرة السحريّة العجيبة ، سيطرة الليل على الأرض والسماء ..

وبعد هذا الانغماس في الليل ، يخرج الفنّان وفي روحه الف حكاية وحكاية ، وفي رأسه ألف باب وباب ، وفي أعماقه الف معنى ومعنى ..

كثير هم الذين لم يفهموا روح وســـار ، كثير هم الذين هابوا لسانه الساخر الذي لم يرحم أحداً ، بل ظلّ يسخر من الجهل أينما كان ، وكيفما بدا ..

وكان لأصدقائـــه حظّ كبير منه ، كما كان لتلامذته ونقّاده .. لم يأبه لهؤلاء المخاليق ، ولم يصغ إلى النقّـــاد الثرثارين ، بل تحرّر من الناس جميعاً ... وما أبدع التحرّر من لا قيمة لهم ! إعتزل في مرسمه ، وظلّ مخلصاً لريشته حتى النهاية ، وظلّ معتصماً ببرجه حتى الموت ، بالرغم من المثبّطات العنيفة التي حطّمت عظامه ، كلّها كانت تنحني صاغرة أمام ضحكاته الساخرة ..

أمّا مبدأه في الفنّ فهو أن يحوّل العلم إلى فنّ ، والفنّ إلى علم ، وأروع علم عرفه الفنّان هو علم الجمال ، لأن



قطعة ليلية
وسلر

الجمال هو كلّ شيء في الحيـــاة ، فكأنّه ردّد قول كيتس (Keats) في قصيدته المشهورة « نشيد الآنيـــة الاغريقية » :

الجمال هو الحقيقة ، والحقيقة هي الجمال .. هـذا كلّ ما يجب أن تعرفه عن الجمال .. وكلّ مـــا يجب ان تعرفه عن الأرض ، وكلّ ما تحتاج اليه يا انسان !

كلّ لوحاته تبدو كأنّها تتأمّل في مرآة ، تخفي أنفاسها دهشاً بروعـة الجمال وعظمة الابداع .. ملحنـــة سوداء وبيضاء ، امرأة تعزف على البيان بثوب أسود ، وفتـاة تستمع اليها بثوب ابيض ، كان الوحي من الليل الأسود والنجوم المتلألئة البيضاء ..

ملحنة الأمومة ، تحدّثنا عن والدته النقيّة المحبّة التي ترضى بالحياة كما هي ، فيها فرح الأم وقلقها ..

أمّا ملحنة العقل فهي تحدّثنا عن رجـــل العالم الساخر كارليل ، يبدو تعباً ، غامضاً ، مشمئزاً من الحيـاة التي تعد الكثير ، ولا تعطي إلا القليل ..

كلتا الملحنتين تعبّر عن أعماق الانسان ، توحّـــد الفرح والالم ، والتفاؤل والتشاؤم ، والقلب والعقل .. إحداهما تمجّد الامومة ، والثانية تعظم البطولة ..

أمّا لوحة السماء فتبدو كالسهم الناريّ ، المنطلق من جعبة

الليل ، قطعة ليليّة مغموسة في الليل وفي نجومه ..
كان وسلر يرسم دون ملل ، يقف متأملاً دون تعب ، يسجّل ما يحسّ دون رياء .. عشق الليل وهام بـه ، وقد عبّر عنه في جميع لوحاته التي دعاها بالملحنات والالوان.
أمّا الفنّان فكان رسّاماً وكان شاعراً ، وصف الليل بقطعة شعرية رائعة ، ما كانت لوحاته بأروع منهـا ..
ولانت له الحروف ، كما لانت له الالوان والالحـان ، وكتب قصيدته :
عندما يكسو الضباب شاطىء النهر ، عندما يكسوه شعراً رائعاً كالغلالة الشفّافة ،
عندما تذوب الاكواخ الحقيرة في السماء الليليّ ، وتغيب فيه المداخن الطويلة ،
عندما تتحوّل الأكواخ الحقيرة إلى قصور شامخـة تحت أجنحة الليل كأنها في بلاد عبقر ،
يسير إلى بيتـه عابر السبيل ، والعامل والعالم ، والعاقل والمجنون ، والحزين والطروب ، جميعهم ينقطعون عن التفكير ، عن الفهم ، يطأطئون رؤوسهم لأجنحة الليل ، يذوبون في عالم واحد ..
أمّا الطبيعة فتبقى ساهرة ، تغنّي للشاعر الشرود أغنيتها ، تناغي الفنّان ، لأنها أمّه ، تنشده على قيثارها لأنها سيّدته ..

أمّه ، لذلك يحبّها .. سيّدته ، لذلك يفهمها ، ويدرك أسرارها ..

ويسمع وسلر في الليل ألف ملحنة وملحنة ، ويسمع في الليل الف نشيد ونشيد ، هو رسّام وشاعر ، قدّم قلبه قرباناً للطبيعة الرائعة ، لامّه وسيّدته .

وعندما شعر بالصقيع يدبّ في عروقه وعظامه ، انطلق الى أمّه الطبيعة ، الى سيّدته ، ينتقل معها من زاوية الى زاوية ، كأنّه ينشدها اناشيد الوداع ، يتمرّغ في شعاعات الشمس الدافئة ، وفي لألآت نجومها السّاهرة ..

أحسّ صقيع الموت في صدره وفي انامله .. فرك قلبه ، وفرك أنامله ، فلم يسرع قلبه ، ولم تلِن أنامله ، أسرع الى مرسمه مثقلاً بالأناشيد والالوان ، وحمل ريشته ليخفّف عن صدره ، وعن اناملة ، ويحطّ عبء الحياة على لوحته .. حرّك الريشة ، فلم تتحرّك .. لاعب أنامله ، فلم تتحرّك .. وضع يده على قلبه فأبطأ ،

أحسّ صقيع الموت يدبّ في عظامه دبيباً ، ثقل رأسه ، وتعثرت أنامله .. سقطت ريشته باكية ، فابتسم راضيًا ، مطمئناً ، ومضى في طريق الخلود ..

عاد وسلر الى صــدر أمّه وسيّدته .. عاد الى عالم الليل الأزليّ ، فانطوت قهقهاته ، وتكسّرت ريشته ، ونام نومة هادئة ، يلفّه الليل باسوداده الجليل ..

بول سيزان

PAUL CÉZANNE

١٨٣٩م – ١٩٠٦م

▲ ولد في إيكس – بروفانس (Aix -Provence) في ١٩ كانون الثاني سنة ١٨٣٩ م ، وتوفي في ٢٢ تشرين الأوّل سنة ١٩٠٦ م .

▲ أراد والده أن يعلّمه تعليماً عالياً .

▲ في الثالثة عشرة من عمره تعرّف إلى إميـــل زولا (Emile Zola) في كلّيّة بوربون (Bourbon) في إيكس، حيث تصادقا ، ولم تدم هذه الصداقة طويلاً .

▲ ذهب إلى باريز ليتعلّم فنّ الرسم سنة ١٨٦١ م .

▲ تعرّف إلى الفنّانين كميل بيسارو (Camille Pissarro) وأرماند غيومان (Armand Guillaumin) ، وحثّاه على دخول مدرسة الفنون الجميلة ، ولكنّـــه رُفض ، لأنّ استعداداته الفنيّة لم تكتمل بعد .

▲ درس على نفسه ، ورسم روائع اللوفر دون نقل أو تقليد ، واهتمّ جداً بلوحات روبنز (Rubens) .

▲ دافع عنه زولا مرّات عديدة .

▲ زار سويسرا .

▲ في سنة ١٨٦٧ م عاد إلى إيكس .

▲ وفي سنة ١٨٧١ م عـاد إلى باريز حيث عرض لوحاته ، وقوبل العرض برضى الفنّانين ،ولا سيا بيسارو، وأوغست

رنـــوار ( Auguste Renoir ) ، وكلود مونيه ( Claude Monet ) .

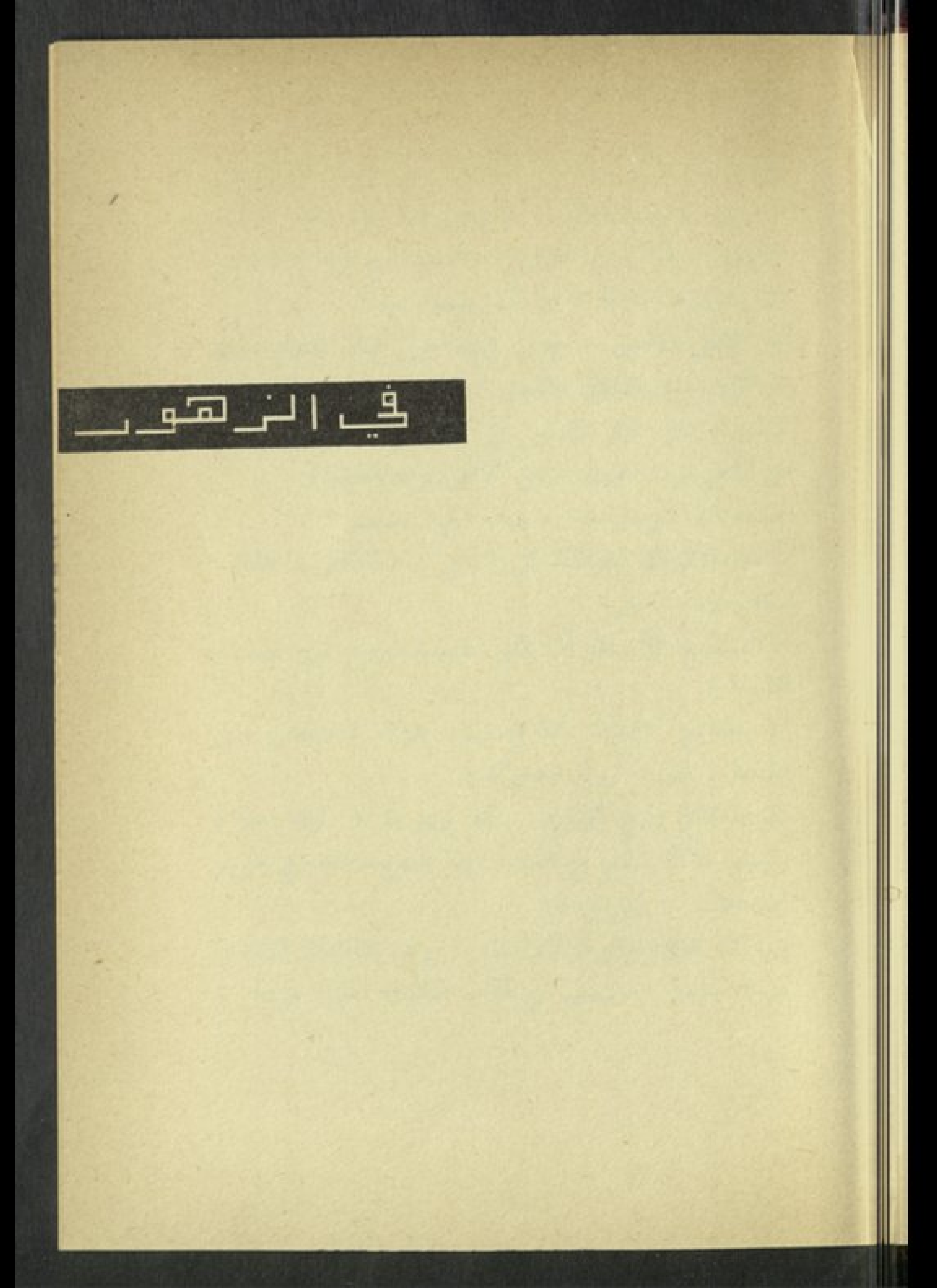
▲ دعي إلى عرض لوحاته في بروكسل ( Bruxelles ) سنة ١٨٩٠ م .

▲ كان زولا مع أهـل الفنان يجلسون امامه كنماذج بشريّة .

▲ من الفنّانين الذين اتصلوا به أو تحدّثوا عنه :
إميل زولا الأديب الروائيّ ، روجر فراي( Roger Fry ) ، واندريه لكايرك ، وأندريان ستوكس ( Andrian Stokes ) النُقّاد ، وسلر وبيسارو ورنوار ومونيه الرسّامون .

▲ وهو رسّام فرنسيّ ، دعي بأبي الأنطباعيّة ، وكما قال عنه فراي هو أول فنّان غابيّ ، خطا بالفنّ الحديث خطوته الأولى .

▲ من أشهر لوحاته :
أشجار الكستناء – شجرة الفستق – صورة امرأته – صورته – مدام سيزان – سلّة التفاح – طبيعـــة ساكنة مع ساعة حائط – طبيعة ساكنة مع زهـور وإبريق – زهور في وعاء أخضر – الوعاء الأزرق – الأشجار .


في الزهور

في مقاطعته ، في بلدته .. في دار أبيه وأمه ، لم يرضَ أن يمشي كما يمشي الناس ، لم يرضَ أن يحني رأسه على الأرض ، يفكّر في العيش ، والعمل مع أبيه ، لم يرضَ أن ينام نوماً هادئاً ، أو أن يغمض جفناً .

بعد الشفق والغسق ، جلس يتأمل ألوان السماء ، ترى ما الفرق بين الشفق والغسق ؟ هل تموت الشمس في الشفق ؟ هل تولد الشمس في الغسق ؟ ما الشبه بينهما ؟ هل الأحمر لون الموت ؟ هل الأحمر لون الحياة ؟

أمعناه أنّ الموت حياة ، وأن الحياة موت ؟

ما هذه الألوان الهوائيّة التي تنوس ، تمتدّ بحرّية فائقة ، وثقة عارمة ، عامرة ؟

ألا يستطيع الأنسان أن يخلق طبيعة أروع من هذه الطبيعة ؟

ألا يستطيع الأنسان أن يخلق بقوّته ، ويضفي على الطبيعة المنظورة رواء وعبقريّة ؟

الطبيعة تقلق روح الفنّان .. إنه يرى ما لا تراه عين ، ويسمع ما لم تسمع به أذن .. إنّ الطبيعة تقف في طريقه اينما ذهب .. إنها تؤرقه ..

يريد أن يخلق ، يريد أن يبدع ، يريد ان يعلّم الطبيعة درساً جديداً ، ويهمس في آذان الكون أشياء رائعة ..

ما أبه للناس ولا للشهرة .. ما أبه للعيش ولا للمال ، بل حمل لوحته وريشته ، وانطلق في الفضاء العريض ، انطلق في الأرض ، وتحت الأرض ، وفوق الأرض وحولها .. بين الهواء وفوق الهواء ، انطلق بجربة مبدعـــة ، يرسم ويرسم ، يمزّق لوحاته بنزق شديـــد ، يرمي صوره في الطرقات ، وعلى قارعات الدروب ، بعصبيّة ظـــاهرة ، عصبيّة الفنّانين .

إنه وحيد ، يحبّ العزلة من أجل الرسم ، يحبّ الحياة من أجل الرسم .

ويبحث في اعماقه عمّا يقلقه ، والخلق يؤرقـــه ، ولذّة الخلق تؤلمه .

لمَ لا يؤلف بريشته كما تؤلّف الطبيعة شمسها وماءها ؟ لم لا يعطي شيئاً جديداً ؟

لمَ لا يسهم في الخلق والأبداع ؟

ما الفائدة من تقليد الطبيعة ؟

ويمرّ مقهقهاً ..

أما النـــاس فيمرّون مستهزئين ويمرّون مشفقين ! امّا المحافظون فيرفضون كل لوحة من لوحاتـه ، ويدوسونهـا دون أسف ، زاعمين أنّ طريقة فنّه ناقصة ، لأنها ثورة على الطبيعة ! وانفلات من قيودها المنظورة !

وكانت الألوان تنغل في عروقه ، تهزّه هزاً عنيفاً ، ثم تخرج إلينا ألحاناً رائعة ، قطعاً من فؤاده الثائر .

وتأمله أبوه ، وانحنى عليه هامساً : ياعزيزي .. ياعزيزي بول ، ماذا يفيدك هذا الصراع وهذا الرسم ؟ كيف تستطيع ان تتمنّى ان تحسّن الطبيعة وتخلقها من جديد ؟! الطبيعة ياعزيزي خلقت منذ البدء بأتمّ مظهر ، وأقدسه وأجمله .. إنك أحمق .. انك أحمق يا بول ! ..

تململ بول متألماً ، واجاب اباه مشفقاً عليه ، مؤمناً بنفسه : لو كنتُ مثلك يا ابي ! لما أبهتُ للطبيعة ، لأن الطبيعة لا تقلقك ولا تأبه لعملك ! ..

أما الطبيعة فأقلقت بول وأرّقتـه ، وعاشت في كلّ ذرة من ذرّات دمه .

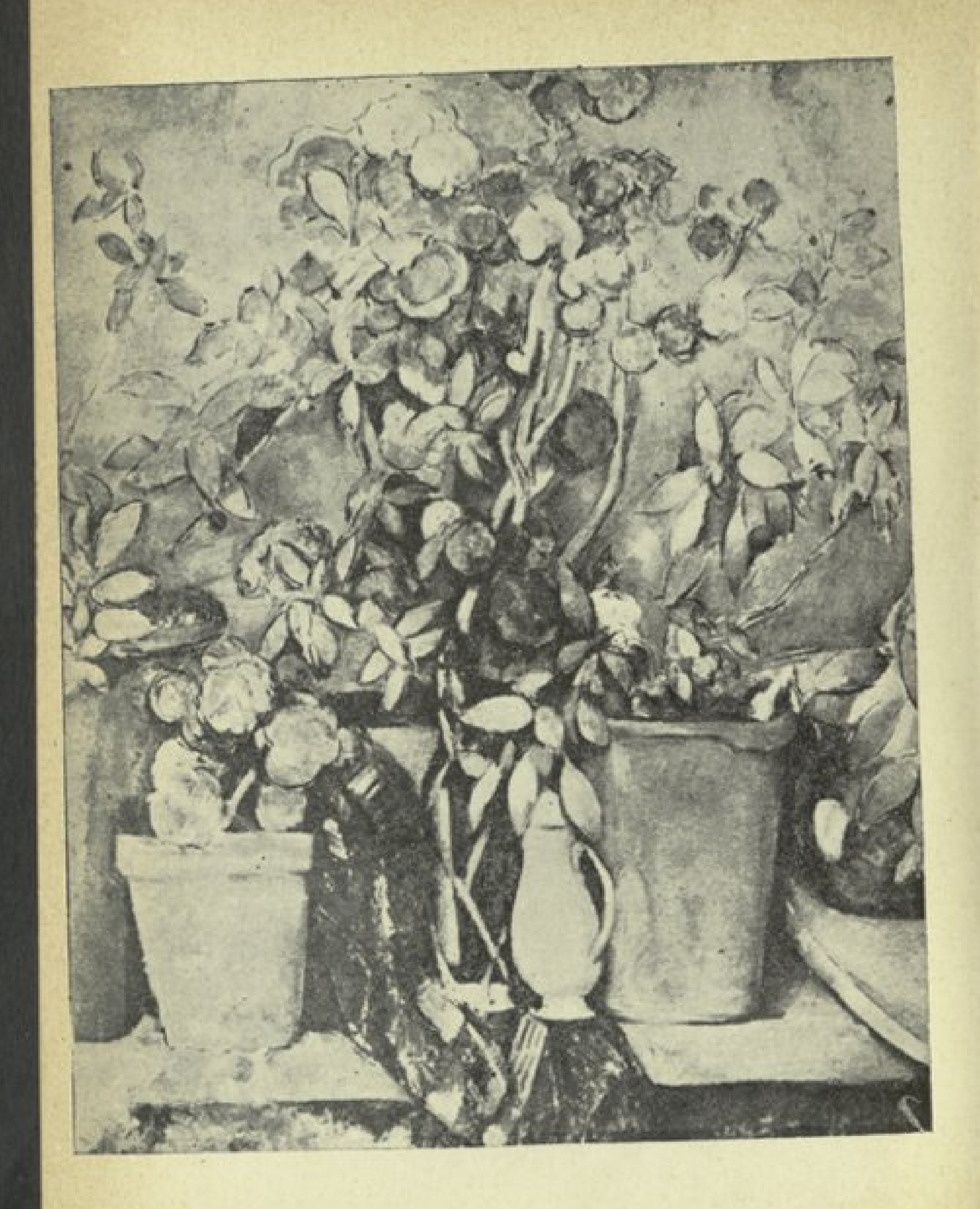
في الطبيعة سمع دقّات قلبه ، وبريشته لملم ملحنات وجوده ، وفهم عبقريّة خلوده .

بينه وبين الطبيعة صداقة متينة ، رسمها ليخلقها من جديد ! ويضفي عليهـــا غلائل الحسن والوقار المنبعثين من روحه النديّة .

هذا هو عمل بول ..

أما الفضاء فدوّى بصراخه ، ورعدت السماء بغمغمات سحره ، ها هي اناشيده تغمر الكون :

أنا إنسان في الطبيعة
انا في الدرب شريد
حياتي وحيدة
في الدرب وحيد ..
ومن السماء تندف على عينيـــه عصارات الشروق ، ويرى الزهور كما يراها الساحر ، يأخذ ريشته كما يأخـــذ الساحر عصاه ، يضرب بها ، فينفتح قلبه ، وتتفتّح أزاهـــير في عروقه ، ويغمرها كالمحبّ العاشق ، الذي اهتدى إلى فكرته بعد سفر طويل شاقّ .
في الزهور رأى ما يريد ان يرى ، في الزهور نطق وغنّ ، هكذا وجد سيزان انسانيته الضائعة ، وجد امله الصارخ ، فاطمأن قلبه الحائر ، وهدأت نفسه القلقـة ، وراح يرسم بعبقريّة ، يرسم باطمئنان ، ويجعل من الطبيعـــة الصامتة تراتيم وأغاني ، لا يعرفها إلا الخلود .. وحكايات بحركات رزينة ، مدهشة ، لا يدركها إلا السِحر ، وألّف من الزهور والثمر والنبات طبيعة حيّة .
في صمتها قصّة رائعة ، وفي صمودها حكاية خالدة .. ها هي الحقيقة التي اراد ان يبحث عنها سيزان ، ويقبض عليها بيده ، ها هي الآن ملك قلبه ، ملك انامله ، ها هي في زهوره ، في ثمره ونباته ، لا تراها العين بل يراها العقل والروح .



طبيعة ساكنة
سيزان

واندفع الفنـــان بكلّ قوّة ، يجعل من الزهور والنبات اشياء جديدة حيّة ، لها الف لسان ولسان ، والف قلب وقلب ، هكذا سكب في الطبيعة إنسانيّــة كبيرة ، كانت حبيسة في روحه ، كمينة في جوانحه .

ورنّ في أذنيه صدى حروف ، كانت بالأمس حبيبة إلى قلبه ، من صديق طفولته وشبابه إميل زولا :

سيزان .. إنّ باريز الجديدة قد نهضت ..

ولدت من جديـــد .. إنهض يا سيزان ، إنهض وحرّك ريشتك بقوّة عبقريّتك ..

آن لنا أن ننهض ونستجيب ..

وانطلق كالبركان الذي طال عليه الكبت والحرمـان ، يجرف أمامه كلّ عثرة ، كلّ جبل ، كلّ صخرة ، يقلع جذور الدوحات ، يدكّ السماء دكّاً ، دكّاً ، يلمـــلم النجوم بأنامله ، ويرفع ريشته عن آخر مسحة ، وينطرح على مقعده ليرتاح من العاصفة الهوجاء التي هدّته ، وهدّأته ..

وتبدو لوحاته بصلابة الخلق البديع ، وقوّة العزة الألهيّــة الثابتة ..

إناء .. ورود .. زهـور .. خيال رائع يتهـادى كالنغم المنساب ، يبدو متآلفاً ، جميلاً ، رشيقاً ، طليقاً .. تبدو

الورود كأنشودة الصبا ، وغنوة الشباب ، ورقصة الفرحة ، وانطلاقة الحريّة المبدعة ..

أمّا الأثمار والكأس ، فكلّها مبتدعة بقوّة الفنّان وإيمانه ، كلّ واحدة تبدو كأنّها صامدة في مكانها باعتزاز ، وتتنزّه عن كل خطأ ، ويد الخالق تشير إليها أن تسكن تلك الجنّة الخالدة إلى أبد الآبدين ..

كان سيزان في طليعة الفنّ الحديث ، كما أنشد وغنّى :

أنا انسان في الطليعة

انا وحيد..

في الطليعة وحيد ..

كان سيزان فنّاناً عظيماً ، كما أنشدت ببغاؤه وغنّت ! :

سيزان فنّان

سيزان فنّان عظيم

فنّان عظيم ..

ويبتسم الفنان ، ويومىء إلى طيره المحبوب ويقول :

هذا ناقد عظيم ! هذا هو ناقد فنّي ، هو الوحيد الذي يدركه ويفهمه !!

ويهزّ رأسه مغتبطاً برضى وطمأنينة ، ثم يمضي في طريقه ..

حمل الفنّان لوحته غير آبه إلا لنفسه ولببغائه ! وانطلق في الطبيعة كعادته ، يتأمّل زهورها ، ونباتاتها ،

يدرسها درس العالم ، يؤلّف منها قطعاً حيّة ..

وفي ذلك اليوم كان المطر ينهمر على رأسه ، غير أنه لم يأبه للطبيعة وعواصفها ، كما أن الطبيعة لم ترحمه ، كأنها ارادت أن تنتقم من ثورته العبقريّة ، وأزّت صقيعها في عظامه ، فتجمّد جسده ، وهمد نَفَسه .

كلّ شيء كان ينطق ويهمس حول جثّتة ، يحمل اليه صوت ابيه :

ايها الشاب ايها الشاب .. إرحم نفسك .. تذكّر المستقبل .. الآتي .. الغد .. بعبقريتك تموت ، وبمالك تعيش .

ويرفع رأسه ليصرخ صرخة الموت :

لا .. لا بل بعبقريّتي أحيا .. أحيا ..

ومات .. قضى الفنّان ، قضى سيزان ، دون ان يسمع عن عظمته من أيّ انسان سوى نفسه وببغائه ! ..

وبعد زمن ، طأطأ النقّاد الثرثارون رؤوسهم خجلاً ، ورددوا أقوال ببغائه !! : سيزان هو الأب الشرعيّ الوحيد للفنّ الحديث ، سيزان فنان عظيم .. فنّان في الطليعة ، في الدرب وحيد ..

وكان سيزان ثورة على التقاليد الفنيّة القديمة ، ثورة على الطبيعة ومخاليقها .. ظلّ ثورة على كلّ شيء ، حتى ثارت الطبيعة

ومخاليقها على جسده ، وحطّمته ..
أما الطبيعة ومخاليقها فلن تستطيع ان تثور على روح الفنّان ، ولن تستطيع ان تحطّم ما خلقه وما أبدعه ..

ونسلو هومر

WINSLOW HOMER

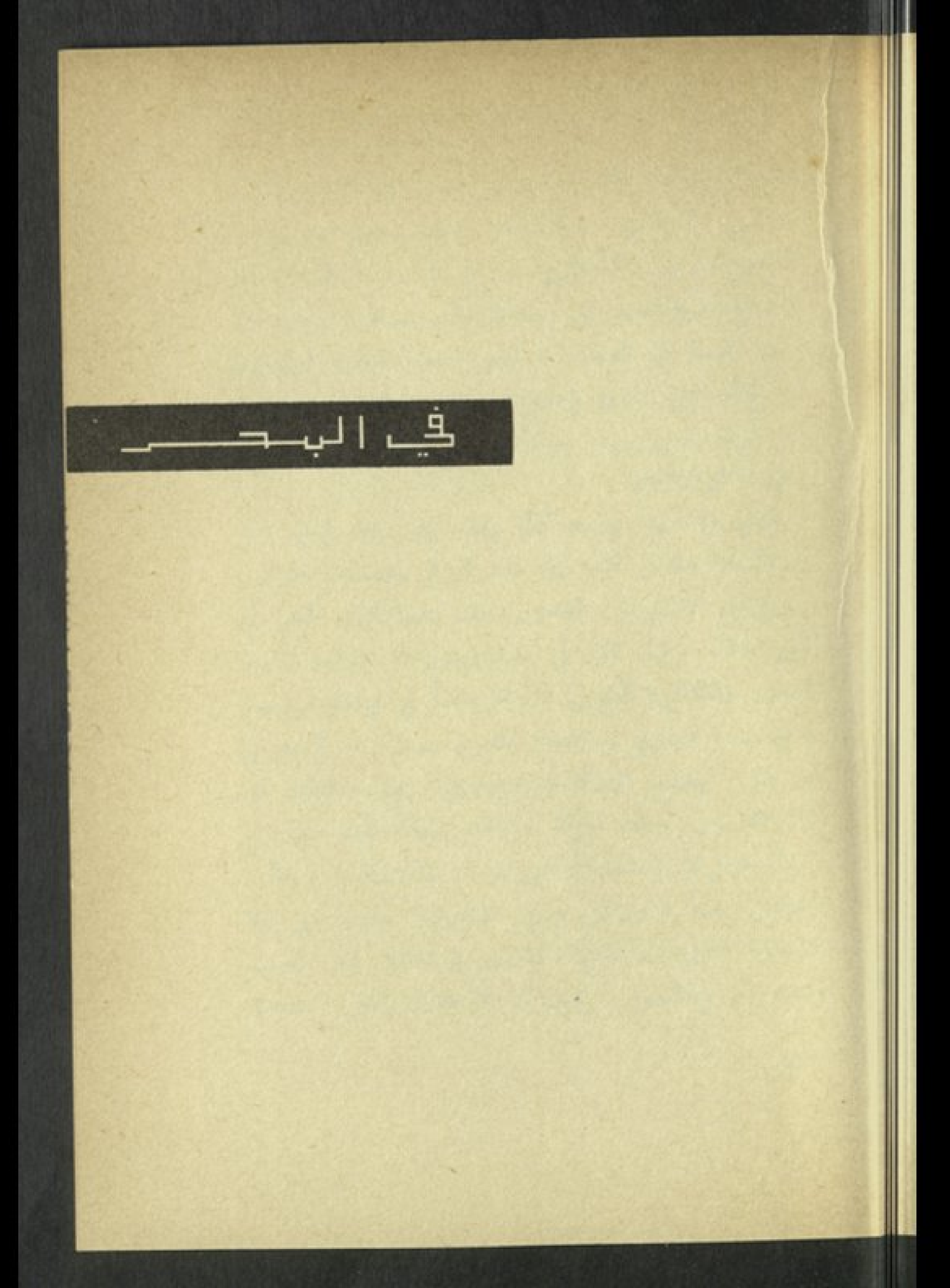
١٨٣٦ م — ١٩١٠ م

- ولد في بوسطن (Boston) ماساشوستس ، في ٢٤ شباط سنة ١٨٣٦ م ، وتوفّي في ٢٩ ايلول سنة ١٩١٠ م .
- كان بحّاراً ، يحبّ البحر .
- زار أوروبا ، ودرس فنّ الرسم في باريز ، كما زار الجزر الهنديّة الغربيّة .
- في أثناء الحرب الأهلية الأميركيّة كان يساهم في رسم المعارك في مجلات عديدة .
- عيّن مخرجاً فنيّاً في مجلة هاربر (Harper) الأميركيّة الأسبوعية .
- دعي برسّام المحيطات والبحار .
- في سنة ١٩٠٥ م عُيّن عضواً في الأكاديميّة الاميركية .
- أنشأ مرسماً في نيويورك .
- من الفنّانين الذين اتصلوا به أو تحدّثوا عنه :

فردريك روندل ( Frederic Rondel ) الرسّام ، توماس كلارك ( Thomas Clarke ) من هواة الفنّ ، كنيون كوكس ( Kenyon Kox ) ، وهنري توماس ( Henry Thomas ) ،و ف. و. مورتن ( F. W. Morton ) النُقّاد .

- وهو فنّان اميركيّ ينتمي الى المدرسة الطبيعيّة الواقعيّة .

● من أشهر لوحاته :
في الحديقة – شاطىء مانشستر – نزول المركب – دمار باخرة – غروب – نيويورك – قطف القطن – خطّ الحياة : وهي مجموعة من اللوحات تصوّر البحر في جميع حالاته .



# في البحر

أحسّ في روحه عطشاً إلى ماء ، أحسّ في قلبه جوعاً الى ما يشبع هذا القلب ، غدا كلّ صباح يبحث عن شيء ، لا يدري ما هو ذلك الشيء ، راح كلّ مساء يقف امام الأمواج علّها تعينه على وجدان ما يريد ، ويعود الى عزلته الحبيبة بين الصخور ، يلمس صخرة صخرة ، يتوارى عن أنظار الناس الذين يزعجونه بأسئلتهم السخيفة ، يسرع الى كوخه الذي أراده بعيداً عن كل كائن ، بين الصخور وعلى شاطىء البحر ..

لا يدري لماذا تهدأ روحه كلّما وقف أمام البحر ، لا يدري لماذا تطمئنّ نفسه إلى هذه العزلة وهذا الجوار .
ويهرع مع الشمس الى الصخور ، يقف عليها ليرى البحر في شتى حالاته ، يراه ثائراً في مدّه وجزره ، أمواجه تسوط الصخور والشاطىء الطويل . يراه هادئاً في حركاته ، يدغدغ قدميه ، فتسري في جسده قشعريرة وهزّة ، لم يعرفها من قبل . يندفع الى كوخه ، ويحمل ريشته ليعبّر عن تلك القشعريرة وتلك الهزّة ، وهما تلحّان عليه حتى يمزج الريشة بالألوان ، فتتمدّان على لوحة رائعة ، ويهدأ ، وتطمئنّ نفسه ، ويؤمن بأن القشعريرة ما هي إلا قشعريرة الخلق والأبداع ، تتلوّى في أعماقه كلما لامست قدماه امواج البحر .. يقسم ان لا يفارق البحر مدى

الحياة ، لانّ فيه عزاء لنفسه القلقة ، عزاء لروحه المبدعة ، وشبهاً ظاهراً بينه وبينه ..

يعود الفنّان ليقف على صخرة بين أمواج البحر ، والبحر رفيقه الأزلي مخلص له ، يمدّه بأروع الألحان والحكايات حتى نفَسه الأخير ..

وكان الفنّان مخلصاً للبحر ، لا يأبه لأنسان ، ولا يحب ان يراه انسان ..

وعلى أوادي البحر تقلّد هومر لقباً خالداً ، لقباً حمله معه في حياته وفي مماته ، ألا وهو « شاعر البحار » ..

كان هومر متشائماً كما كان متفائلاً ، كان ساخطاً كما كان هادئاً ، يحب الناس ويمقتهم . ابتعد عنهم لانّه خاف من مكرهم وازعاجهم وثرثراتهم ، وكان اذا وجد نفسه بين الناس ، يسرع الى بندقيّته ، الفارغة طبعاً ، يصوّبها على الجمهور المحتشد حوله وهو يضحك منهم ، كأنّه يقول : ابتعدوا عني .. ما هذا الازعاج ؟ .. اتركوني أرسم .. اتركوني وحيداً ، وحيداً ..

وكان يرفض التعرّف الى من لا يعرفه ، ويرفض ان يقابل أيّ غريب ، أمّا البحر فلم يكن غريباً عنه ، لانّه يفهم تقلّباتة النفسيّة ، ويعبّد له الطريق ، ويدعوه إلى الجلوس أمام كعبته ، يتملّى من روائع أساطيره وحكاياته ..ويسجّل

الفنّان ضحكات البحر وابتساماته ، يسجل ثورته وغضبه ، يسجّل صراخه وأنينه ، وانتصاره وفشله ، كان حبيباً الى قلبه ، مؤنساً له ، لايعرف بصحبته مللاً ولا تعباً ، بل يجلس أمامه دون تأفّف ، دون ضجر ساعات طوالاً ، يخلق منه ملحمة خالدة .. كلّ شيء أمامه كما يريد ، وبينه وبين البحر شبه ظاهر ..

وقف هومر على صخرة ينظر الى البحر ، يسجّل حكاية من تلك الحكايات ، تقصّها عليه امواج البحر البعيدة والقريبة .. هبّت عاصفة ، وتلاطمت الامواج والشواطىء ، وفغر البحر فاه يبتلع المراكب التي تجري في عرض البحار .. في كل مكان ، في الارض وفي السماء ، انتشرت الاكفان البيضاء ، وتأزّرت الغيوم بعباءة سوداء حداداً على ضحايا العاصفة ، سُحقت أرواح ، وحطّمت زوارق ، واختنق صوت الانسان كأنه ماكان .. وتقلّصت عظمة الانسان قاهر البحار ، امام ذلك الجبّار وتلك الاهوال !

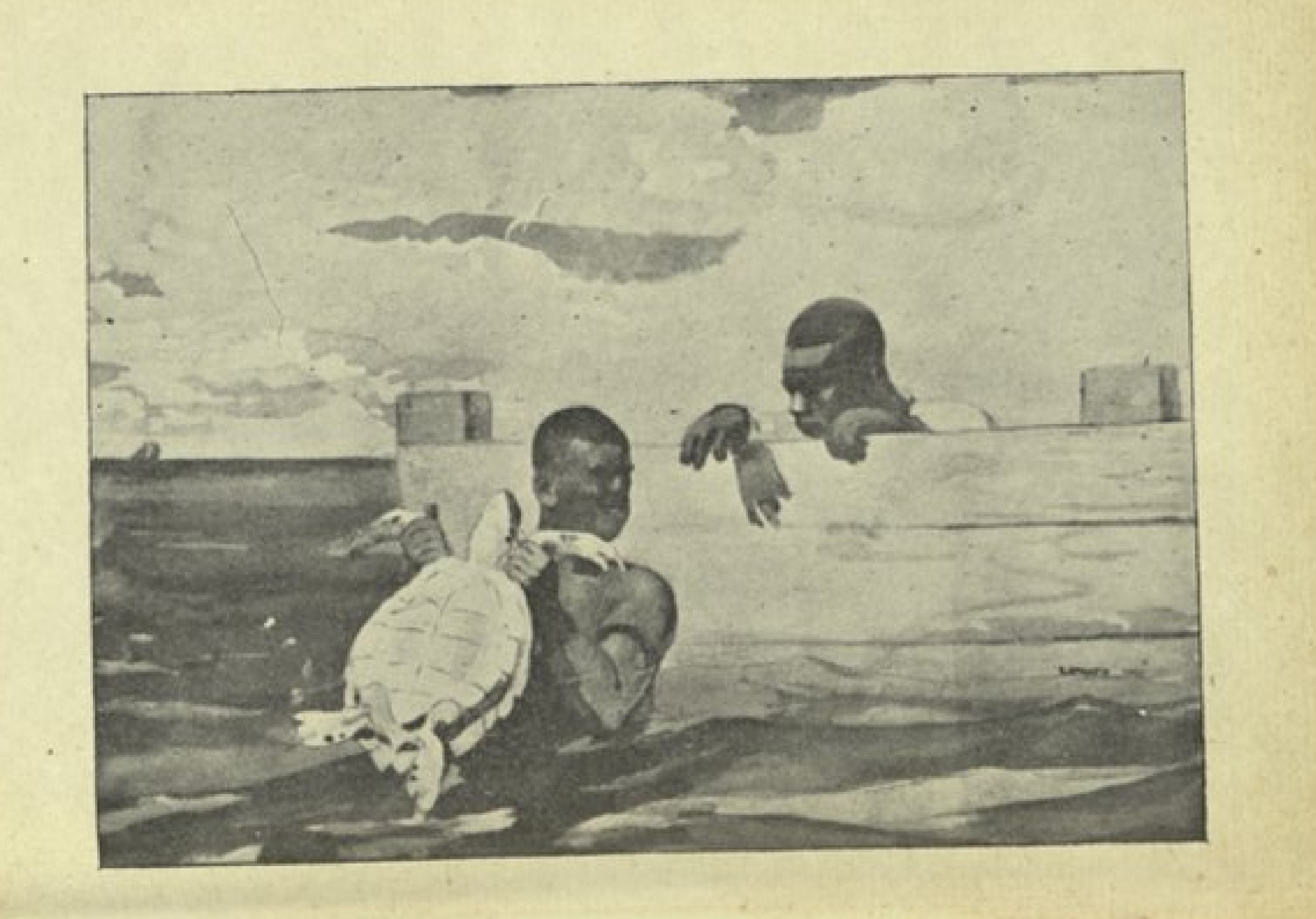
مرّت المأساة ، وتحدّثت نفسه إلى نفسه : ما أضعف الانسان ! وما أعظم البحر ! وفي الوادي البعيد صدى ذلك المركب المحطّم ، يتأرجح عليه الموت ، أمّا الفنّان فما زال واقفاً على صخرة ينتظر مأساة ثانية من مآسي

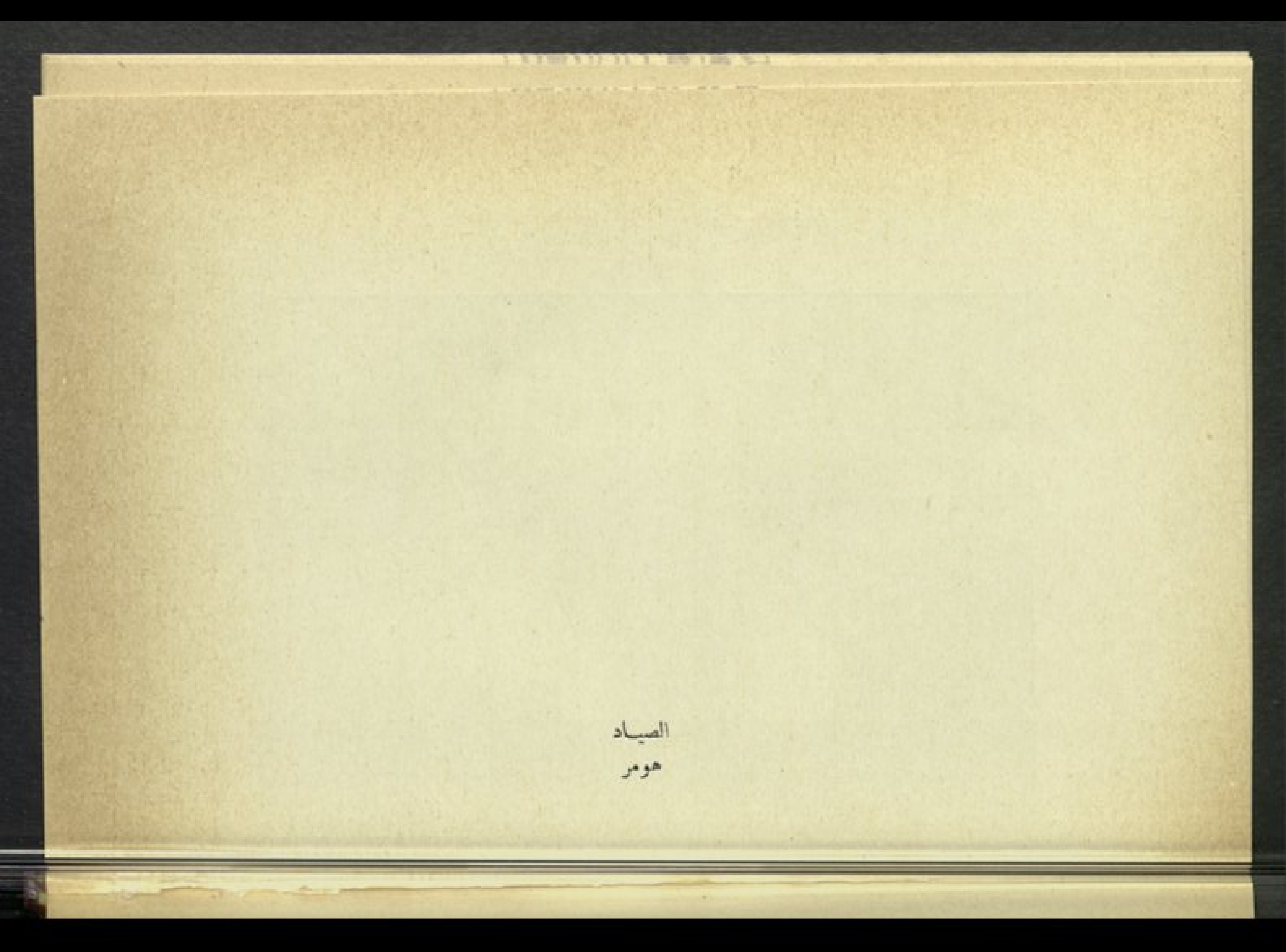
البحار !

وفي زاوية أخرى من البحر مركب دون شراع ، دون مجذاف ، تقذفه التيّارات ، وعليه زنجيّ تعب ، تحيط به كائنات البحر ، تنتظر غذاءها بسغب شديد . ومن بعيد ، على خطّ الأفق المديد ، تقذف الامواج بقايا مركب حطّمته الأمواج ، أمّـــا الزنجيّ المسكين فيستسلم الى القضاء ، ويفقد كلّ رجاء .. والفنّان ما زال منتصباً على الصخرة ، ينتظر مأساة ثالثة من مآسي البحار !

تثور نفسه ، يتحطّم قلبه حزناً ، ويحمـــل ريشته ليحطّ عليها ذاك العبء الثقيل ، وبعد تعب يسجّل بريشته عبارة طالما ردّدها : ما أضعف الانسان ! ما أقوى الطبيعة ! لكلّ مأساة بطلان ، أحدهما الأنسان وثانيهما الطبيعة ..

هـــدأ البحر وأفلَتِ الشمس ، انقشعت الغيوم ، فكان مساء ، وكان ليل ، وهدأت نفسه مع البحر ، فحمل ريشتة ليصور البحر في الليل ، في سواد الليـل ، ويطلُّ النهار مشيراً الى لوحة سوداء ، يزداد بها شغفاً ، ويرمي ريشته دون ان يشارك النهار ، لأنّ الليل شاعر صافٍ ، لا يحتاج الى نور كي يهتدي .. وفي ليلة ثانية يرى البحر ، ويشعر بجلاله وعظمة السماء ، تلك المصابيح البعيدة التي تتغـــامز وتترجرج ، والبحر ساكن ، تجعّده أنسام طيّبة ، ويعلو على





الصياد
هومر

صدور البحر أخاديد من الزَّبد ، ويلقي القمر على الأمواج لوناً شرقياً ساحراً ..

ويمرّ مركب ، وعلى دفته ملاّح يغنّي ، ووجهه قاسٍ قُدّ من فولاذ ، يردّد أنشودته الأبديّة : ناموا .. يا رفاقي .. ان النجوم ساهرة ، والبحر هادىء ، والمركب سالم ..

وظلّ الفنّان كعادته محدّقاً بالبحر ، يتمتّع بجماله ، ويسكب فيه حياة من حياته ، يشاركه في افراحه كما يشاركه في أتراحه ، ثم يبتعد عنه لانّه يريد حكاية أخرى ترضي نفسه القلقة ، وسرعان ما يتحوّل الهدوء إلى عجيج وضجيج ، والفنّان صامد أمام ثورة عارمة ، تنطلق من أفواه الآلهة غيوم قاتمة ، تحوم هنا وهناك ، تارة تجتمع وتارة أخرى تنشقّ ، لتكوّن وكنات زرقاء ، تطلّ منها نجمة أو نجمتان .. كل شيء يسير رتوباً ، وشيء سحريّ يستمرّ متصاعداً أمام الشاهد فيقف مشدوهاً أمام عبقريّة الانسان وهو يشقّ الأوقيانوس العنيد ، ويفتحه عنوة بذكائه .. وها هو الفنّان يلقي روحاً على البحر تنطقه وتحرّكه ، ويقدّم للعالم ملاحم رائعة .. لم تزل تحكي أساطير البحار ..

اهتمّ الفنّان بالملاّحين ، وسل البحر ، كما اهتمّ بالبحر نفسه . راقبهم وهم يكافحون الأمواج سعياً وراء القوت ، يجرّون

شباكهم ، ويرجعون بصيدهم منتصرين أو فاشلين .. يرقصون مع فتياتهم على الشاطىء ، يجرّون المرساة باخلاص وإيمان ، في الليالي الحالكة يقصّون قصصهم ، ويروون احداث بطولاتهم بسذاجة الطفل ، والأمواج تقبّل أنوار القمر ، والبحر يشنّ عليهم غاراته المرعبة ، ثم يضمّهم إلى صدره الرحب بعطف وحنان ، لانهّم أطفال صغار ، أمام أب جبّار ..

وبعد عياء وتعب ، عياء الخلق وتعب الأبـــداع ، جلس الفنّان على صخرة مسمّراً عينيه في كعبته ، غير أنّه شعر بشيء غريب يقترب منه ، لم يلتفتْ يمنة ولا يسرة ، وأصرّ أن يسمّر عينيه في البحر ، وفي الأمواج ، وحوله همسات وسؤالات : من يكون ذلك الكائن الغريب الذي يقترب منه ؟ هل هو إنسان ؟ ومن يكون ذلك الأنسان الفضوليّ ؟..

ويبتعد الدبيب ، ويدور دورات حول الكوخ ، وسرعان ما يتجه الدبيب الى الشاطىء يبحث عن شيء ، يبحث عن كائن بين الصخور ، والتقى برجل عجوز ، رثّ الثياب ، يحمل في يده سمكة أو كائناً من كائنات البحر ، وينادي الصوت : أيها الصّياد .. أيها الصّياد .. هل تساعدني في البحث عن هومر ، شاعر ملك البحار ؟

ويردّ عليه الرجل العجوز : وماذا تريد منه ؟ إنه يعيش ولا يعيش .. يسكن هنـــا ولا يسكن .. يكره كلّ

غريب .. يكره من يريد ان يتعرّف إليه .

ويندفع الرجل العجوز الى البحر محدّقاً به ، غائصاً في ذاته ، يحمل ريشته ليسجّل ما رأى ، ثم يذكر أنّه هومر ، هو هومر نفسه !، فيجيب متُهانفاً : أنا هو .. أنا هومر !..

هكذا كانت عبقريّة الفنّان كشجرة السنديان العظيمة القوية ، تحتاج إلى تراب كثير كثير ، وهواء نقيّ طلق لتكبر وتنمو وتمتدّ .. وعاش الفنان وحيداً ، يؤيّد قول جوتيه ( Goethe ) : إنّ الميول تتربّى وتتهذّب في الجماعة ، أمّا العبقرية ففي الوحدة .

وظلّ وحيداً مع البحر والنجوم .

وفي يوم نطقت النجوم والبحار ، ونادت الفنان ، وكان الفنان مخلصاً للنداء .. رفع رأسه ، وهمس : أنا آت .. آت .. ما أجمل الهدوء !.. ها هي النجمة تناديني .. ها هو البحر يلوّح لي بأمواجه ..

كل نجمة ، كل موجة تصفّق لي ، وعلى عنقي وسام البحار ، نادته النجمة وناداه البحر فلبّى النداءين وسار ..

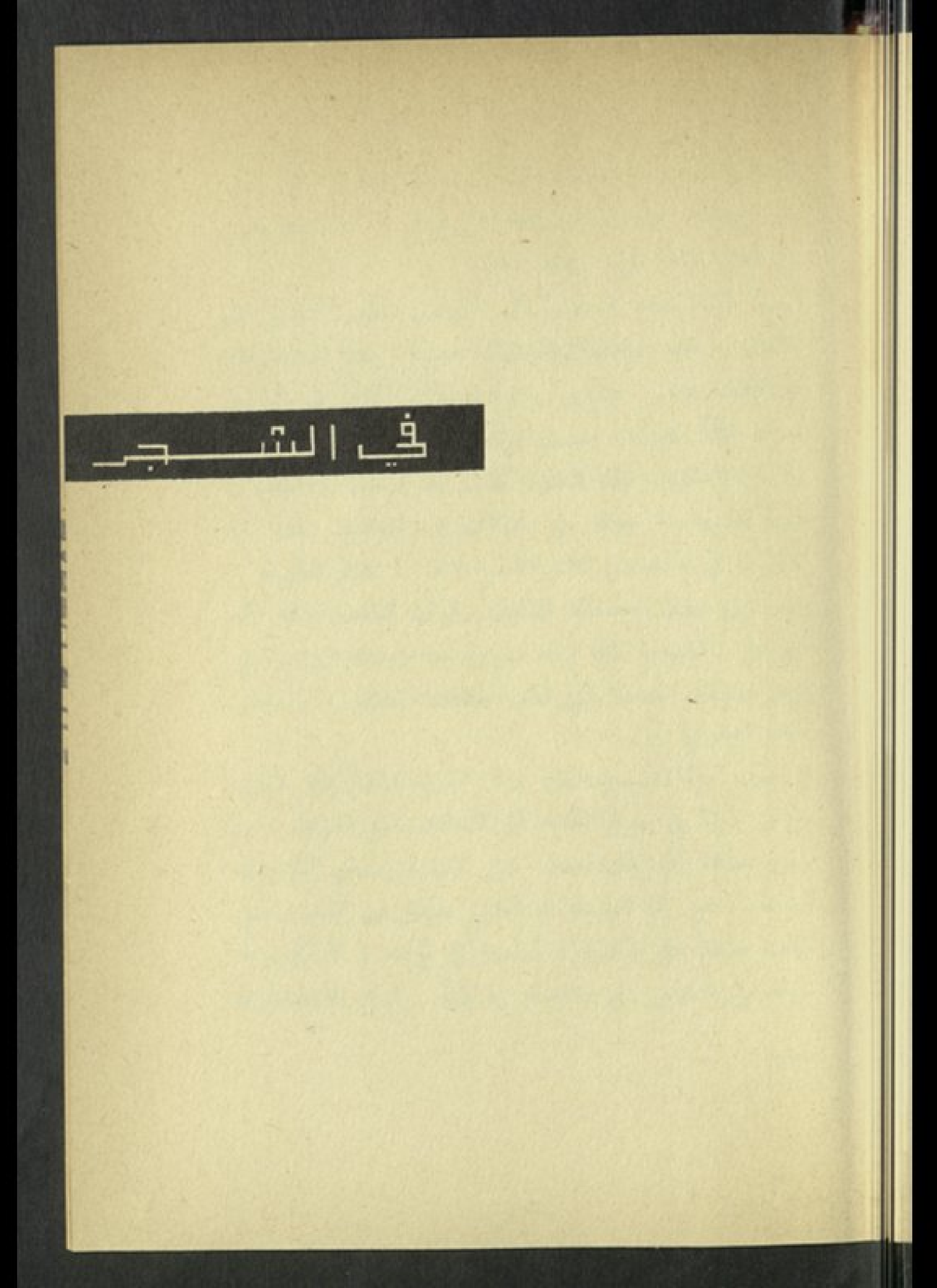
## هنري روسو

HENRI ROUSSEAU

١٨٤٤ م – ١٩١٠ م

◄ ولد في لافال ( Laval ) سنة ١٨٤٤ م ، وتوفي سنة ١٩١٠ م .
◄ التحق بالجيش سنة ١٨٥٩ م .
◄ ومن سنة ١٨٦٢ م الى ١٨٦٧ كان موسيقياً عسكريّا .
◄ لم يكن متعلّماً ، ولم يطلّع على ثقافات العالم ، ولم يكن له حظّ من العلوم ، ومع هذا فكان معلّماً للموسيقى والرسم .
◄ كان يعمل في الجمرك الفرنسيّ ، لذلك دعي بالجمركيّ ( Le Douanier ) .
◄ أجاد العزف على الكمان والمزمار والمندلين والبيان .
◄ زار بلاد المكسيك وتأثر باخضرار حقولها .
◄ من الفنّانين الذين اتصلوا به أو تحدّثوا عنه :
فان غوخ وغوغـان وتولوز لوترك الرسّامون ، غيوم أبولينير ( Guillaume Apollinaire ) الشاعر ، جان كوكتو ( Jean Costeau ) الناقد والاديب المسرحيّ ، م . جروم ( M. Géreome ) ، وم . كلمون( M. Clément) الناقدان ، وثيو فان غوخ من هواة الفنّ .
◄ وهو رسّام فرنسيّ ، من الطليعة في الفنّ البدائيّ الساذج ، ينتمي إلى المدرسة الساذجة البدائيّة .

◄ من أشهر لوحاته :
الشلال – حفلة الزواج بين الشجر – النورية النائمة – امرأة في غاب – الحاوي ( بين الشجر ) – منظر طبيعي ( من الشجر ) – الحرب .



# في الشجر

لم تكن حياته طويلة ، ولم تكن حياته معقّدة ، بل كانت كما أرادها : ساذجة ، بسيطة ، هيّنة . أراد ان يعبّر عن تلك الحياة بشيء بسيط ساذج .

أحسّ شيئاً يناديه ، طوراً الى الأرض وطوراً آخر الى كائناتها . وقف يداعب الرياح دون عصبيّة ، ينظر الى الطبيعة ، الى كائناتها بدهش حسّاس . واول نظرة ألقاها على الطبيعة أورثته قلقاً خفياً ، فلم يشأ أن يظهره أمام اصدقائه ولا أمام عائلته ، تلك النظرة كانت نظرة حب وإعجاب . حبّ للطبيعة لما حوته من جمالات ، واعجاب بنفسه لما يتكوّن في نفسه من تلك الاشياء ، قد لا تلائم الطبيعة ، وقد تثير ضحك اصدقائه الفنانين وقرف الناقدين ، غير انه اصرّ على تأليف ما كان يراه منثوراً هنا وهناك ، واصرّ على الرسم بخيّلته الخصبة التي غذتها حكايات أحلامه ، وأساطير خياله العبقريّ .

لم يعرف شيئا عن الفنّ ولا اصوله ، ولم يأبه لأن يدرس شيئا في سبيل اقتفاء اثر السالفين من الفنانين ، ولم يرضَ مطلقا ان يقلد احداً ، حتى انّه رفض ان يقلّد الطبيعة ، غير ان الطبيعة لم تكن بعيدة عن قلبه ، بل كانت بعيدة عن فكره ، أرادها كما يراها ، لا كما يراها سواه من الناس في واقعيّة اشكالها . امّا الأنطباعيون

في نظره فهم الذين حافظوا على الطبيعة ، وقلّدوها ، وإن كانوا قد لوّنوها بألوانهم الخاصّة ، ألوان كانت تروقهم وتروق ذوقهم وإحساسهم ، وكانت تزيد الطبيعة تعقيداً ، أمّا هو فلن يقلّد الطبيعة ولن يزيدها تعقيدا .
كان ينام ليحلم بطبيعة جديدة . كان يحبّ الليل لتطمئنّ الطبيعة وتتآلف بسلام ، تنطلق من أوكارها حيّات على أنغام الحاوي ، فيقف دون رهبة من الليل ، ومن كائنات الغاب . كان يحلم ويجعل اشياءه تحلم معه ، يدعو الى وحدة تامّة . كل واحد لا يخاف من الآخر ، أمّا العيون فكانت محدّقة دائما بالناس الذين ينظرون الى الصورة ، كأنّ في أعماقه ألما من الناس الذين يدهشون عندما يلقون نظرة واحدة على لوحة من لوحاته .
يصحو مرّة ثانية ، ولكنّه لم يبدأ بعد .. ولم يحمل ريشة ، ولم يعرف اذا كان باستطاعته ان يبدأ بقوّة خارقة ترعب الناس وتبعدهم عنه .
أمّا ذوو الأرواح الحسّاسة ، ذوو العقول العبقرية ، فهؤلاء هم الذين يمجّدونه ، يحسّون إحساسه ، يحبّون طبيعته الجديدة بألوانها وتآليفها وبساطتها وسذاجتها .
لِمَ نعقّد الطبيعة وهي بسيطة ساذجة ؟ لِمَ لا تشترك الكائنات كلها على ارض واحدة ، وتتساوى كلها كما

تتساوى أمام القوّة العظيمة ؟
وأيّ شيء في الطبيعة يعبّر عن بساطتها ؟.. وراح بهدوئه المعهود ، ورزانته العميقة ، يبحث دون أن يثير أي ضجّة في محيطه . هو إنسان يبدو طبيعياً ، يحبّ مجتمعه ، لا يرهبه ، يتقرب من أصدقائه ، يحيا حياة إعتياديّة في ظاهرها ، أمّا أعماقه فكانت تضجّ شعوراً بشيء جديد . أمّا قلبه فكان حسّاساً ، عاطفياً ، صادقاً .
راح يوماً يمشي بعيداً في الطبيعة ، وقف فجأة يحدّق بالاشجار ، ويرفع رأسه ، كان بصره يلتوي ، يحدّق بأعالي الشجر ، ثم يجول في نظره ويهبط به الى اسفل الشجر . وقف يسند رأسه التعب الى شجرة ، ومدّ يده يقطف ورقة من الشجرة ، أحسّ غبطة ، فانتقل الى شجرة اخرى يقطف ورقة ثانيـة ، والى شجرة أخرى يقطف ورقة ثالثة . وبعد أن تحسّسهـا في كفّه وضعها على الأرض ، على التراب ، يرسم بأصبعه أحجامها ، وبحركة قويّة أخذ أوراق الشجر فرحاً ، جذلاً كالطفل ، يسرع بخطاه ، وفي ذلك الحين تمنّى لو تحمله الأرض دفعة واحدة إلى بيته . وصل لاهثاً بعد أن اجتاز ضجيج الناس وقـاذوراتهم ، وبعد تعب مضنٍ دخل غرفته وأوصد البـاب ، ثم راح يتأمّل أوراق الشجر .

ألا يستطيع أن يخلق مثلها ؟ ألا يستطيع أن يعطيها حياة أكثر من حياتها أو أن يخلّدها ؟ ألا يستطيع أن يضعها على أغصان من صنع يديه ، أو أن يضع الأغصان على جذوع كبيرة ضخمة ؟ وحمل قيثارته يعزف عليها ، يعزف عليها ألحان الانتصار ، وبدت له الأوراق متراقصة فرحة منتفخة حياة ، صامدة كأنها الأبديّة لا يمسّها الفناء .

وارتاحت نفس الفنّان هنري روسو ، ارتاحت نفسه القلقة المخلصة ، المحبّـــة ، وظلّت في اعماقه تتلوى دون ان تؤثّر في حياته اليوميّة .

وأراد ان يحمل ريشته ويرسم ، فأعدّ لنفسه مرسماً في بيته ، وراح يقطف اوراق الشجر ، ويصوّر كائنات رآها في الأحلام وفي اليقظات ، يحملها الى مرسمـــه ، ويحوّل مرسمه الى طبيعة جديـــدة اراد ان يخلقها ليخلّدها في لوحات ، وتمنّى ان يحيا مع الشجر ، مع اوراق الشجر ، في الغاب ، حيث ينطلق الانسان مع الحيوان متآلفين ، ورأى انّ الحياة كلّها في الشجر ، في جذوعـــه ، في اوراقه ، وتراءت له حقيقة الحياة ، ونواة الوجود .

وراح يرسم جذوعاً ضخمة ، هائـــلة ، ويرسم اوراقاً منتفخة صامدة ، كأنّها محنّطة ، ابديّة ، امّا الانسان فرسمه اصغر حجماً من الأشجار ، جعله يدبّ على الارض امام

الأشجار الماردة . جميع الناس متساوون بأحجامهم وحياتهم واتجاهاتهم ، جميعهم يسيرون على درب طويل ، كأنه يقول لهم : سيروا على هيئتكم .. على رسلكم .. لا تعقّدوا الحياة ، لأنّ الحياة سهلة ، بسيطة ، طريقها معبّد طويل ، أمّا النهاية ففي أعماق هذا الشجر ..

ويلوي الفنّان ريشته ، ويتنفّس بحرارة واطمئنان ، يغمس ريشته في ألوان ، أهمّها الأخضر القاتم الذي أوحاه اليه الشجر ، وغابات الارض ، ويلوّن لوحاته ، ويتّهمه الناس بألف تهمة وتهمة :

ألوانه رخيصة ، كأنّ لوحاته مطبوعة ، ولم يتردّد فان غوخ في البداية بقوله ان لوحات روسو تشبه المطبوعات الرخيصة ، يشتريها الناس الذين يحبّون الأغـــاني البوبرية الصارخة .

مرّ عام وتلاه عام آخر ، ومرّت سنة وتلتهاسنة أخرى ، وأفاق روسو من نشوته الفنيّة التي لم يتخّذها في البدء إلا هواية وتسلية . أما الآن فقد أصبحت ملازمته حيثما اتّجه . وراح يرسم ليل نهار ، يرسم الأشياء بأبسط صورها ، في خيال رائع ، وفي إبداع عجيب . ولم يكن ليكتفي برسم لوحة واحدة في وقت واحد ، بل كان يرسم ثلاث لوحات أو أربع في المرّة الواحدة .

كانت لوحاته كلّها تتحرّك بقوّة سحريّة ، تنطلق من الألوان بملحنة رائعة ، ملحنة خضراء ، لم ينغّم مثلها من قبل .

لم يأبه لأشكال معيّنة أو لنماذج بشريّة ، بل كان خياله الخصب يقوى ويشتدّ لخلق كائنات خاصّة به . وأراد ان يجلّل لوحاته الرهبة والخوف ، لا لأنّه اراد ان يرعب بها الناس ، بل لأنه اراد أن يألفها الناس ، فتخرج من عقلهم الباطنيّ الذي يحمل مثلها أساطير ، حملتها إليه أيّام طفولته ؛ أيّام كان يعشق الحكايات وأخبار الغاب ، والقوى الخفيّة ما وراء الطبيعة .

أراد أن يشير إليها كلها ، وهي صديقة للانسان إن وعاها وأحبّها . وفي لوحة واحدة جمع أشجاراً وأوزّة ، وحيّات سوداء ، وبحيرة تتموّج ، وحاوياً يعزف بمزمار ، ليناسق بين كل هذه الكائنات التي لا يخاف بعضها من بعض .

وقد اعترف أبولونير بأنّ لروسو إحساساً قوياً عميقاً . كان يرسم أشياء خياليّة ، ويخلع عليهـا من روحه وعبقريّته ما يجعلها واقعيّة محسوسة . وعندما يحسّها ، يجهده الأحساس فيرتعب ، وقد يضطّر الى فتح النوافذ للترويح عن نفسه التي أرادت أن تصادق الكائنات الخياليّة ، ولكنها عندما أقرّت بواقعيّتها وأحسّت بنبضاتها تتحرّك ، فرّت هاربة

منها ، ثم يعود اليه الشعور بالاطمئنان والهدوء ، ويعود بنفسه الى لوحاته يتأملها بأعجاب الخالق المبدع ، الذي كوّن لنفسه طبيعة جديدة ، أرادها دون نفاق ، دون تردّد ، دون تعقيد .

كلّ لوحة من لوحاته حكاية ، وحكاية تلك المرأة النائمة حكاية بسيطة ، فطريّة . هي نائمة بهدوء عميق في ليلة مقمرة وعلى رأسها أسد واقف ببساطة ، كأنّ المرأة لم تكن امرأة ، وكأن الأسد لم يكن أسداً ، ونظر جان كوكتو الى المرأة وقال :

كان قصد الفنّان ان لا يدلّ على آثار الاقدام في الرمال ، لم يبدُ أنّ المرأة جاءت مشياً الى هنا ، بل كانت نائمة هنا . ليست في موضع بشريّ إنّما تعيش في الخيال !

وفي الغاب امرأة نائمة بهدوء وسذاجة ، وأشار اليها بعض النقاد ، فأجاب روسو :

ان المرأة نائمة على وسادة ، تحلم بأنها نقلت الى هذه الغابة ، تسمع موسيقى السحرة .. حافظتُ على هذه البساطة الفطريّة لانني شُجّعتُ ان احافظ عليها . وقد أخبرت أنّ عملي لا ينتمي الى هذا العصر .. كما تفهمون ، لا أستطيع ان أغيّر طريقي ، هكذا أنا .. سيأتي يوم تصبح فيه لوحاتي غير غريبة ..

ومشى في طريقه معجباً بلوحته .

وهذه أشجار طويلة ، ماردة ، على جانبي طريق ، وعلى الطريق رجال ونساء ، يبدون صغاراً ، صغاراً امام عظمة الاشجار التي تدور وتتحرك بشكل قويّ ، ملتفة متماسكة ، مصقولة . هذا الشجر مارد ، أمّا الناس فهم اقزام امامه ، لانهّم ولدوا من جوهر الشجر .

وبرّ حاوٍ في ليل مقمر . على بحيرة متجعّدة الأديم ، وعلى شطّ البحيرة اوزّة واقفة ، كأنّها قُدّت من حجر ، وشجر بين طويل وقصير ، واوراق منتفخة ..

بين هذا الشجر وهذه الأوراق يقف الحاوي الأسود وعيناه بيضاوان ، وفي فمه مزمار ينادي كائنات الشجر .

وماذا يخرج من الشجر ؟

حيّات سوداء تنبعث راقصة ، مهلّلة على الأنغام . يقف الحاوي بسذاجة ، يتحرّك ولا يخاف منها ، لكنّه يحرّك الناظر اليه ويخيفه . وكذلك تقف الأوزّة بجرأة دونَ حركة ، دون رهبة . كلّ شيء متآلف ، هادىء ، متآخٍ ، حتى القمر يبدو بدراً جميلاً هادئا ، والأزهار على اعالي الأغصان . كل شيء يحنو على الحاوي ، كل شيء ينظر اليه ، وهو واقف بسرور لا يؤذي احداً ولا يؤذيه احد . حيّة تلتفّ على عنقه بدلال ، وثانية على



الحاوي
روسو

قدميه ، وثالثة تطلّ من الأغصان ، وتقف كالعصا أمام وجهه .

كلّ هذه احلام مرتبّة ، مؤلفة ..

ترى هل أراد روسو ان يألف الانسان أحلامه ، فيدفعها عقله الباطن الى الوجود ؟ أو تراه اراد ان يألف هو مثل هذه الأحلام فلا يخاف منها ليلا ؟!

هل يقصد إرعاب الناس ؟ هل يقصد ان يقول للناس إن الطبيعة لا تؤذي ، وإن الأحلام تعطينا الواناً خصبة ، وكائنات خياليّة رائعة ، كلّ واحد منها يحبّ الآخر ، لا يستطيع جمعها في مكان واحد بمحبّة ووئام ، إلا ريشة الفنّان المبدعة ؟

ومهما يكن فقد احبّ روسو لوحاته حباً عميقاً ، واحبّ كائناته ، واحبّ شجره المتكاثف ، وكوّن لنفسه منها غابة ، لا كسائر الغابات ، وطبيعة لا كالطبيعة ، كانت طبيعة جديدة ، طبيعة من خياله الخصب ، واحلامه الملوّنة .

ورفع ثيو راسه يحدّث اخاه فنسنت فان غوخ :

اتعرف يا اخي العزيز روسو ، هنري روسو ؟ .. يجب ان تتعرّف إليه . لم يتلقّ علماً ولا تدريباً في حياته ، ومع هذا فأنه فنان من راسه الى اخمصيه ! يعمل في

الجمارك ، لذلك سمّي «بالجمركيّ» ، يرسم ايام الآحاد ، هو شاعر يؤلف في الموسيقى ، يغنّي ، يعزف على البيانو والمزمار ، والى جانب هذا كلّه يعطي دروساً في العزف على الكمان لأولاد العمّال ، كما يلذّ له ان يعلّم الشيوخ .

وماذا يرسم يا ثيو ؟

يرسم حيوانات خياليّة ، من وحي احلامـــه ، تنطلق هـــذه الحيوانات عادة من غاب خياليّ . امّا الغاب فلا يعرفه إلا من بعيد ، هو فلاح ، ساذج ، فطريّ .

ما رأيك في رسمه ؟

لا ادري يا فنسنت ، سمعت الكثيرين يلقّبونه بالمجنون او بالمعتوه .

وهل صحيح هذا الذي يقولون ؟

هو مثل طفل ، طفل ساذج .. عندما تتعرّف اليه ستحكم عليه بنفسك ، وسترى جميع لوحاته معلّقة على الجدران .

كيف يبدو يا ثيو ؟ قل لي كيف يبدو ؟

انسان قصير ، بدين ، انامـــله قصيرة ، له انف وذقن مدبّبان ، عينـــاه واسعتان بريئتان ، خاليتان من كل حقد ، ومـــن كلّ خبث . ينظر إلى كل من يضحك منه ومن لوحاته او يستهزىء به وبلوحاته ، بعينين مؤمنتين محبّتين ، هادئتين ساذجتين ، دون ان يضمر لهم الحقد في

قلبه ، ويبادلهم ابتسامة طيبة ونفساً راضية .

وأول يوم رأى فيـــه فنسنت فان غوخ هنري روسو ، وقف محدقاً به بعد ان أساءه استهزاء الناس بلوحاته :

انزع القناع عن وجهك يا روسو ، فأنا مثلك فلاح ورسّام .

مدّ روسو يده وصافح فان غوخ بحرارة .

أنا معجب برسومك كثيراً يا روسو .

وأنا معجب برسومك كثيراً يا فنسنت .

وانطلقا معاً بضحكة عالية ..

روسو .. هل تعرف انّ الناس يدعونك مجنوناً ؟!

نعم ، نعم اعرف . وهل تعرف انتَ أيضاً أنّ الناس يظنونك مجنوناً مثلي ؟!

نعم ، نعم أعرف !..

وانطلقا معاً بضحكة عالية ..

دعهم يا فنسنت يعتقدون ما يشاءون ، ستعلّق لوحـــاتي يوماً في اللكسمبورغ !

وستعلّق لوحاتي يا روسو في اللوفر !

ووقف الفنّانان بأيمان قويّ ، يشدّ كلّ واحد منهما يد الآخر بحرارة المعرفة !

وهكذا كان للفنان روسو الذي تعالت حوله سخريات ، وقامت حوله ثرثرات ، أن يشقّ الطريق بجرأة ، ويبني

لبنة متينة خالدة من لبنات الفنّ الحديث .

هذا مجنون خالد وذاك مجنون خالد .

اما الناس فطوبى لهم لانهّم لن يكونوا مجانين ، ولن تقلق نفوسهم ، يدبوّن على الارض ، ويعيشون على هامش الحياة كالقطعان ، يطأطئون نفوسهم لكل عُرف ، ولكلّ تقليد .

وانحنى أبولينير الشاعر ينحت على قبر روسو حروفاً من قلق الانسان ومن آلامه .

أوغست رودان

AUGUSTE RODIN

١٨٤٠ م – ١٩١٧ م

- ولد في باريز في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ م ، وتوفيّ في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ م .
- في الرابعة عشرة من عمره بـدأ يدرس فنّ الرسم في باريز .
- زار ايطاليا وشمالي فرنسا .
- تأثر بالفنّانين الأغريق والطليان ، وبكتابات دانتي .
- اهتم بالخزف والهندسة المعماريّة ، وقد أولع بالنحت ، وعرف به الى جانب هذين الفنّين .
- استعان بجسد الانسان للتعبير عن المجرّدات .
- من الفنانين الذين اتصلوا به او تحدّثوا عنه :

فيكتور هيجو ، برنارد شو ( Bernard Shaw ) الاديب المسرحيّ ، جبران خليل جبران الأديب والرسّام اللبناني ، وقد تتلمذ عليه .

- وهو نحّات فرنسيّ ينتمي الى المدرسـة الانطباعيّة الرمزيّة .
- من أشهر أعماله :

يد الله - آدم - حوّاء - الروح والجسد - الينبوع الأزليّ - العاصفـة - النفس - المفكّر - الشكّ - العناق - القبلة - السرّ - عصر البرونز - الحرب -

برنارد شــو – بلزاك – فيكتور هيجو – روميو وجوليت – الشاعر وملهماته – يوحنّا المعمدان – بوّابة الجحيم – يد .

# في جسد الانسان

لم يدرِ أنَّ الطبيعة التي ستحنو عليه بكلِّ قواهـــا .. لم يدر أنَّ الطبيعة التي سيشعر بشآبيب أنفاسهـــا الشفيفة ، الحارّة ، تتصاعد مع البَخور ، تلتوي مع هساهس الحور ، وعزيف آلهات الغاب ، وزَمزمات الرعد والبرق ، متأرجحة بين الأغصان المورقة ، مندفعة من قلوب العيون السَروب ..
لم يدرِ أنها ستضمّ إليها شقيقة روحه ، إبنة أبيه وأمه ، تلك الفتاة الراهبة التي وهبت قلبها البكر لله وجبروته ، وقد أحبّها حبّاً شديداً ، أحبّ إيمانها العذب الابيض ..
وصرخ متألماً ، متأوّهاً لمصابه الأليم ، وتجلببت سمـــاؤه بالغيوم السود ، ولفّة الليل بجزيعه الذي لن يتزحزح ..
وهام شروداً في الغابات الخضراء ، يسوط الأرض بأقدام فولاذيّة ، ليسحق ذرّاتها ، مطالباً بأعزّ ما كان لديه ..
هام منتقماً ، ثائراً ، زاعقاً في الفضـــاء ، وبعد .. آب من سفره الطويل إنساناً هادئاً كبيراً ، وروحاً عميقاً ، يبحث في ما وراء الطبيعة عن قوى كامنـــة ، وأسرار غامضة .. هام والألم يفككّك كلّ أمل ، والقلق يحدو به إلى الانتحار ، آب وعلى راحته الحصبة جبلة الألم ، وعلى ظهره المنحني رسالة الفنّ .. نادى على قيثـــاره ، فالتفّت حوله بنات الجنّ ، وانفتحت عينـــاه على ذاته .. وسعى يبحث ليطفىء قلقه الروحي ..

راح يسبر ما غاب عن عينيه من رؤى ، فامتلأت روحه بموجات أثيريّة ، وعـلا من كلّ زاوية أريج يخفق ، وأرواح ترفرف ، والتوت أنامله تعلّم الألم كيف يخلق .. تنحت الصخور اشكالاً حيّة ناطقة .. تجبل من التراب والمعدن أرواحاً تسعى .. تحدّث النفوس القلقة عن راحة وطمأنينة ، لا يفهمها إلا العباقرة .
يا للعاصفة العميقة المنتجة ! ويا لهزّاتهـا في نفس مشعّة مبدعة ! .. تتهادى على يديه ، ملتفّة بعضها على بعض ، تجبل أرواحاً خالدة .. تلك الأرواح التي نحتها الفنّان ليريها للناس على صور ، لا تأبه لبريق الاظافر ، ولا لزخرف الشعر والهندام .. ويقول بصوت هادىء :
كفى .. كفى ياصاحبي أن تنظر الى وجه انسان .. الى تلك الوجوه البشريّة ، لترى أرواحهـا ، وتفهم أسرارها .. إن الوجه لا يخدعك ..
كان حبّه الجنوني ان يسبر الحياة ، ويفهم الروح ويعبّر عنها ، يجرجرها من أعماق الاعماق ، إن ظهرتْ ، طابت نفسه ، وارتاحت روحه القلقة ، هذا هو هدفه الاوّل ، ومسعاه الاخير .. ثم يقول مؤمناً ، والاخلاص يشدّه شدّاً :
إن النفس هي السرّ الذي أحاول أن ابرزه في نتاجي ،

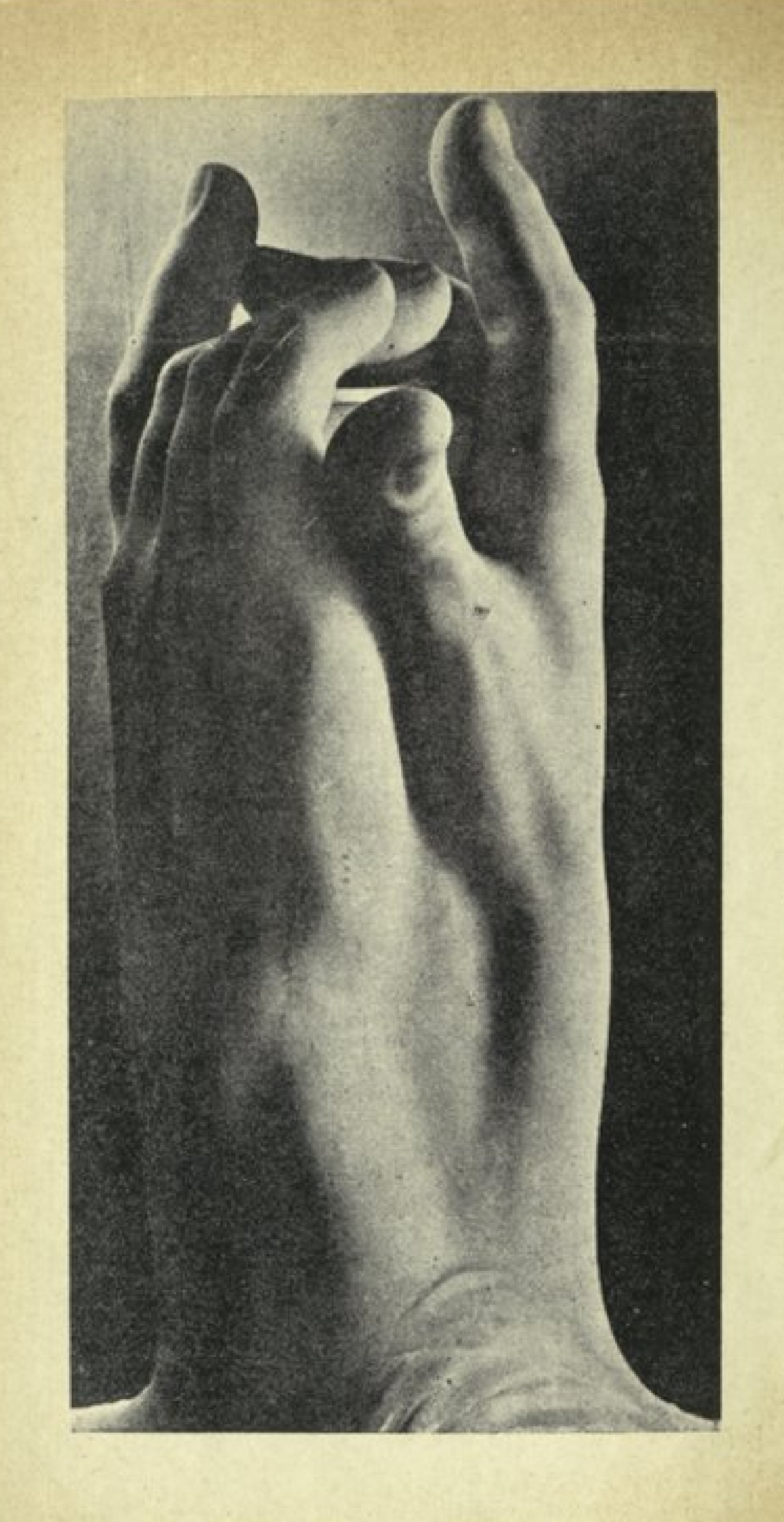
والفنّان يرى ضميراً كبيراً كضميره ، أو روحا خلاّقة كروحه ، تحلّ في الطبيعة جمعاء ، ويؤمن بأنّ الروح الكبرى تحلّ في كلّ خلية حيّـــة تتحرّك ، فالغيمة في السماء ، والأخضرار في النبـــات ، والألوان في الطبيعة والصخور والثرى ، كلها تطمئنني ، وتشعرني شعور صدق بوجود سرّ قويّ ، عظيم ، وروح كبيرة محبّة .

سجد امام محراب الطبيعـــة ، يعزف بقوّة أخـّــاذة ، واشتدّت جوارحه كأنها الأوتار ، فتساوت لديه المخلوقات ، لا فرق بين إنس وجنّ ، بـــين إنسان وحيوان ، بين إنسان ونبات ، بين إنسان وجماد ، أمّا جسد الانسان فكان له اعظم وسيلة للتعبير عن ذلك المستور ، فيـــه إحساس فائق ، وقوّة عظيمة ، وحركة تمثّل الحياة والطبيعة الكبرى . ويتناول بأنامله اللدنة جسد الانسان ، ويلويه رمزاً خالداً ، يفسّر به كلّ فكرة ، في الفلسفة كانت أم في الشعر ، وتراءت له أحلامه ، وآمن بأنّ الطبيعة كلّها تمثّل في جسد الانسان ، وفي الطبيعة انصاف من البشر ، تتسلّل من الاغصان ، وتقفز من الينابيع ، من الصخور تتمطّى ، ومن الثرى تصعد . الطبيعـة هي منبع الحياة ، وجسد الانسان هو المعبّر عن هذه الحياة المليئة بالمعاني ، النابضة بألف قلب وقلب .

سمع الفنّان هدهدات بنات عبقر ، فأغمض عينيه طرباً ، واصغى بأدراك عميق الى هينمات آلهات الغاب وهي تطوي الجداول والخمائل ، وتجدل مياه الغدران ، وبعد عراك شديد ، بعد قصف ورعـــد ، هطلت الغيوث جوداً على الصحراء ، وهزّت الطبيعة فشذّبتها ، مادت الارض ارتواء ، وتمطّى الفنّان نشوان ، مغموراً برحيق الجمال ، وهل تعرف عيناه إلا الجمال ؟ وهل تلمس انامله المعطاء إلا الحقيقـــة المجرّدة وراء كلّ محسوس ملموس ؟ . . تعب ، تعب من المنبهات الهاربة ، وجلس منهداً على ذاته :

إنّ عيني الفنّان غارقتان في الجمـــال ، متيّمتان . الفن جميل ، جميل ولو ارتشف من معين القبح ، أقبح مخلوق في الطبيعة ، يصبح اجمل مخلوق في الفن ، والجمال غاية لا وسيلة ، إن الحقيقة والجمال صنوان ، امّا الطبيعة فتعطي ، فليكن ما انحتُ واجبل مبعثراً في الطبيعة ، كما تبعثر الطبيعة كائناتها ، وما اخلق هو منها وإليها . .

من بين الصخور يسعى النوم هادئاً حالما ، برأس جميل ، ومن بعيد تهبّ العاصفة والرياح هديدة ، تلتوي وتزأر على رؤوس الناس ، وتجمد بقوّة صامدة خالدة ، ما أرهبها ! وما أجملها ! . ومن الصخور يتفجّر الينبوع ، فتتهادى عروس البحر صاعدة من الاعماق ، تستمدّ من الحياة قوّة ، ومن



السر
رودان

الطبيعة جمالاً ، وتبعث النسيم هديراً حلواً ، وفي برهـــة خالدة ، ولأوّل مرّة ، يتعانق الليل والنهار وتلفّهما الغيوم ، ويذوبان في شعور مرهف جميل . أما اللؤلؤة ، تلك المخلوقة الجنّة ، فتطلّ من المحارة لألاءة النغم ، على قيثار عبقريّ ، تحدّث الطبيعة عن بحرها الممرع الزاخر ، وعن جمالها الرائع ..

ومن بعيد ، بعيد ، يد عظيمة جبّارة ، تلدها الصخور ، لتحكي قصّة البدء ، قصّة الخليقة ، تلك اليد الصلدة التي أعطت الحياة عقلاً يفكّر ، وإنسانيّة في أقوى قواها ، وفي أعظم خلقها وابداعهـــا ، تلك يد الله ، تحيط البشريّة بالعناية الالهية ، وتقذفه إنساناً يسعى ..

من السرّ خلق ، ووراء السر يسعى ، باحثاً عن اسرار الحياة ، وغوامض الاكوان بعقل قويّ ، مؤمن ، مبدع .

سيبقى السرّ مغلقـــا غامضا ، لن يفوح من الراحتين ، امّا الانسانية الكبرى فستعرفه ، تلـــك الانسانيّة التي تحقّق وجودها بحريّة فائقة ، وتهدّىء روحها القلقـــة ، وتعبّد دربها الوعر ، كما عبّده الفنان رودان ، واستطاع ان يستعين بجسد الانسان ، ويجعله رمزاً لكلّ فكرة تخطر ببال ، وتتم :

لكل فكرة رمز ، أحبُّ الرمز ، أحبّـــه لانه يؤدّي المعنى المقصود .

ويعود الى أنامله يجبل أجساداً خياليّة ، ينحت الفكر الانسانيّة أجساداً ، يبعثرها في الطبيعة مع كائنات الطبيعة جنباً الى جنب ..
من الطبيعة واليها يعود كلّ كائن ، ومن الله واليه يعود كلّ روح .
اتبع الطبيعة ، تعرف نفسك ، وتحلّ الالغاز والطلاسم ، اتبع الطبيعة تعلمك الحرّية المطلقة والاختيار الحرّ ..
الطبيعة معطاء يحرّكها جسد الانسان ..
وما أشبه أجوائنا بأجواء الطبيعة !

هنري ماتيس

HENRI EMILE BENOIT MATISSE

١٨٦٩ م — ١٩٥٤ م

▲ ولد في لو كاتو كامبرزي ( Le Cateau Cambrésis ) فرنسا الشماليّة ، في ٣١ كانون الأول سنة ١٨٦٩ م .
وتوفّي في ٥ تشرين الثاني سنة ١٩٥٤ م .

▲ ذهب إلى باريز ليتعلّم في كليّة الحقوق .

▲ كان محامياً ناجحاً .

▲ لم يأبه لزيارة المتاحف وصالونات الرسوم حتى العشرين من عمره .

▲ في العشرين من عمره أصيب بالتهاب الزائدة الدوديّة .

▲ في الواحدة والعشرين عاد الى باريز مرّة ثانية ، ليدرس فنّ الرسم .

▲ نقل أروع اللوحات القديمة في اللوفر ، فاضطرت الحكومة أن تشتري أكثرها ، لأنّ النقل جاء رائعاً مطابقاً للأصل .

▲ تأثّر ماتيس بالفنون الشرقيّة ولا سيّما العربيّة منها والافريقيّة .

▲ اهتمّ باللون اهتماما كبيراً ، واتخذه وسيلة للتعبير عن أفكاره .

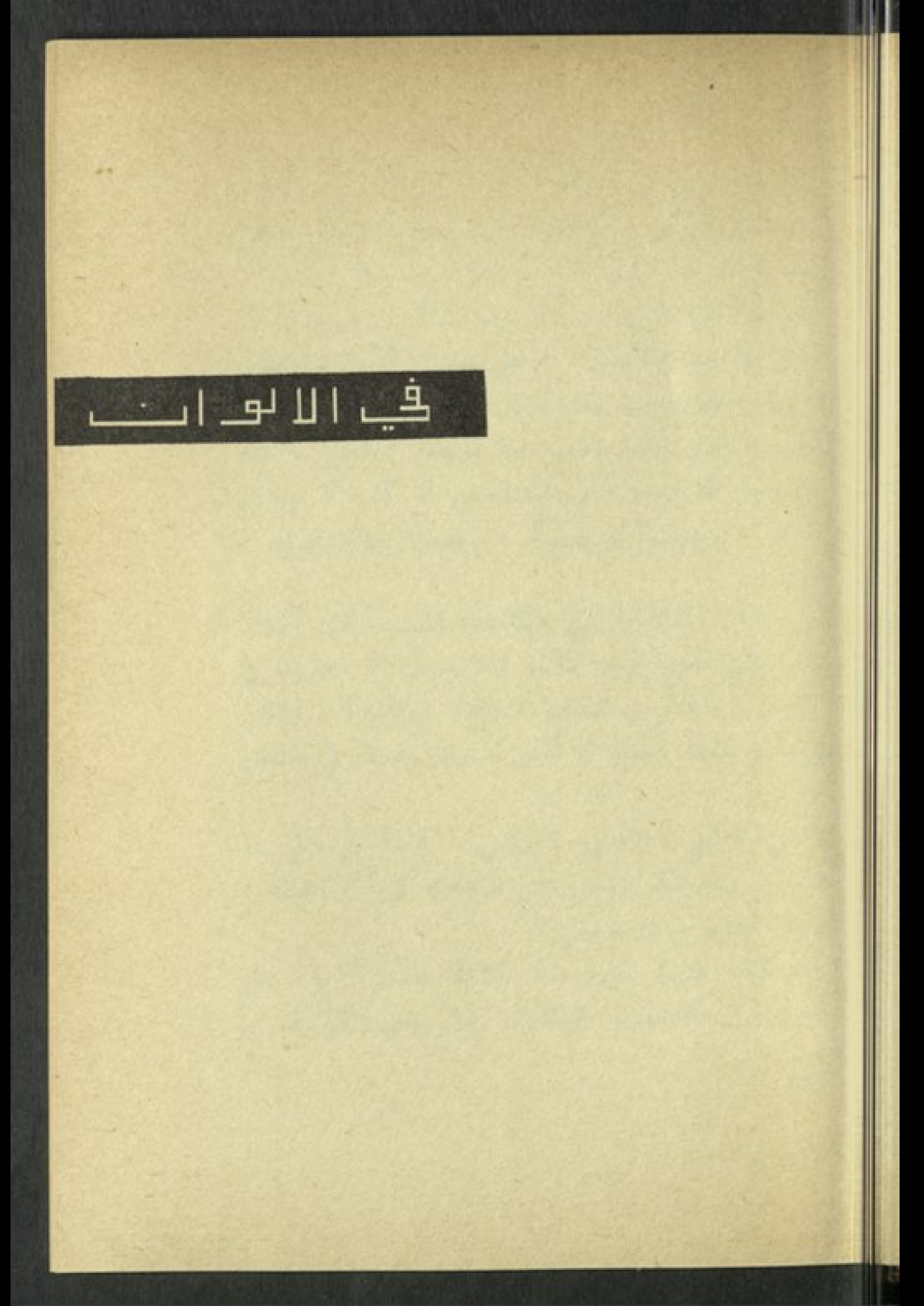
▲ من الفنّانين الذين اتّصلوا به أو تحدّثوا عنه :
أبولينير الشاعر ، أندريه جيد ( André Gide ) الاديب الروائيّ ، ألفرد بار ( Alfred Barr ) ومارسيل نيكول

وكلمنت ( Jean Hall ) وجان هول ( Marcel Nicolle ) غرين برغ (Clement Greenberg) النُقّاد .

▲ وهو فنّـــان فرنسيّ ، أبو الفن الحديث المعروف بالفنّ الأدغالي ( Fauvism ) .

▲ من أشهر لوحاته :

امرأة وطاقيـة ـ مستحمّات وسلحفاة ـ النافــذة المفتوحة ـ زوجة ماتيس ـ تأمُّل ـ مستحمّات أمام النهر ـ الموسم الاحمر ـ امرأة في الازرق ـ محارة فوق طاولة من الرخام الاسود ـ محارة ومرجل في إطار أحمر .



# في الالوان

كان يتململ في فراشة ألماً ، يعرف طوراً منبع الألم ، ويجهله طوراً آخر . أيكون ألمه جسدياً ؟ ألم يكن منذ ساعات بين أيدي الاطباء يشقون بطنه ؟

ليس هذا كل ما يريد ، إنّما يريد شيئاً لا يفهم سرّه . ويميل على جنبه الأيسر ، ثم على جنبه الأيمن ، ويحدّق بالغرفة ، فيرى نفسه وحيداً بين جدران يفوح منها روائح الطبّ ، الذي أنقذه بالامس من أوجاعه الداخليّة ، أنقذه من وجع لحمه ودمه ، ولم ينقذه من ألم آخر لا يعرف ما هو ، ويصمت حزينـاً ، ويغمض جفنين كليلين ، تعبين .

أمّي ، أين كنتِ يا أمّي طيلة هذه المـدة ؟.. كنتُ أشعر بأنني أقطع ارجاء شاسعة ، لا يعرفها الا المعذبون في الارض ، وقُدّر لي العذاب ، وقدّر لي النجاة ، ولكن في داخلي شيئاً أحسّه ، أشعر به وهو يدبّ في جسدي يؤرّقني ..

لا شيء يا ابني ، لا شيء يا ولدي . انّك في عافيـة طيّبة . وبعد أيام ستخرج من أوجاعك قوياً ، نشيطاً .

وماذا تحملين بيدك يا أمّي ؟

أحمل اليك هديّة صغيرة ، لا اظنك حالمـاً بها . هل أجرؤ ان أقدمهـا اليك ؟.. لعل بعض الهمّ ينسري

عنك ..

ما هي يا أمّي .. أسرعي ، أشعر بشيء يحرّك أعصابي ، يرف له قلبي طرباً .. ما هي الهدية يا أمّي ؟ أحس .. وتنقطع الكلمات وتجفّ في حلقـــه ، ويحدج أمّه بعينين عاتبتين .

تقف امه متردّدة . ماذا يقول ان رأى الهديّة ؟ هل يتوقّع مثلها ؟ هل تروقه ؟

وتصمت بدورها ، وتمدّ يدهـا ببطء ، تناوله الهديّة بيد مرتجفة ، وبيد مرتجفة يحمل الهديّة ، ويفكّ عنها رباطها ، فتبدو امامه ألوان ، تلتمع لها عيناه ، وينتقل اللمعان الى عروقه وأعصابه ، فيهزّها هزاً ، لا يستطيع ان يفسره . وتنظر امه اليه صامتة ، في حيرة بين سؤالين :

هل أعجبته الهديّة ؟ ألم تَرُقه ؟

لم تعرف سرّ الجواب الذي كمن في أعماق روح ابنها . وتأكّدت الأم ان ابنها سخر من الهـديّة ، لانه بعيد عن عالم الالوان ، وعالمه كلّه مرافعات ودفاع عن حقوق المحرومين . وندمت مرة ثانيـة ، وخرجت من المستشفى حزينة . وفي اليوم الثاني عادت اليه .

أين الورق يا أمّي ؟

فانطلقت بابتسامة ساحرة ..

لمَ نسيت الورق ؟!
فالتمعت عينا الأم .
أيّ ورق يا ابني ؟
ورق الرسم ، أريد ان أرسم .. أريد أن أجعل الألوان تنطق ، تزعق في وجوه الناس ، أريدها أن تحكي ، أن تدافع عن حقوق الناس ..
خفّف عنكَ يا ولدي ، غداً تشفى ، وبعد غد تعود الى الألوان والاوراق ..
وفجأة وقف مشدوها صامتاً ، يريد ان يتكلّم ولا يريد أن يسمعه أحد :
ما خلقتُ لأكون محامياً .. ترى هل خلقتُ لأكون رسّاماً ؟!
وتخلّص من أوجاعه الجسديّة ليعاني آلاماً روحيّة ، لم يعرفها بمثل هذه القوة من قبل . وبدفعة غريبة تحـــدو به الى أمل جديد ، يعجز لسانه أن يعبّر عنه ، نادى أمّه ، ففهمت حكايته ، وحكاية الألوان ، ورعته بعطفها وحنانها..
أما خفّفت أمه آلامه الروحيّة ، كما خفّف الاطباء أوجاعه الجسديّة ؟
ألم تكتشف أمّه الحبيبة فيه عبقريّة جديدة ؟
أكانت العمليـــة التي أجريت له سبباً لقلقه النفسيّ ، أم

كانت الهديّة نقطة تغيير كبير في مجرى حياته كلّها ؟
هكذا كان الأطباء سبباً لقلقه النفسيّ ، وهكذا كانت أمه سبباً لازالة ذلك القلق ..

أمّي ، أحسّ احتراقاً يتأجّج في صدري ، أنا غريب يا أمّي ، غريب ، وتلك قوّة غريبة أحسّها بين أضلعي . دعيني أذهب مرّة ثانيةً الى باريز ، دعيني أذهب ..

وحمل نفسه القلقة الى باريز ، وقضى أربع سنوات يتلقى هناك أصول الفنّ والرسم ، ويرسم بحرارة لم يشعر بمثلها في سنيه الماضية .

وراح ينقل روائع قديمة ، ما شاء ان يقف أمامها من قبل. أمّا النقل فلم يطمئنّ روحه القلقة ، المتعطّشة الى شيء جديد ، الى ألوان صارخة ، ناطقة .

ورحل الى لندن ، واطّلع على الفنّ هناك ، ولم يهدأ له بال ، ثم عاد الى باريز حاملاً معه نفسه القلقة التي ما زالت تبحث عن شيء .

لم ترقه الابعاد في اللوحات ، فكانت في نظره ضرباً من الوهم ، فنفر منها نفوراً شديداً ، اما الطبيعة فظلّت حليفته ورفيقته .

رفع رأسه المثقل بالهموم ، وعاد يحدّق بالألوان علّها تخفف

عنه العناء أو بعض العناء .
غمس ريشتـــه في الاحمر والاصفر والازرق والاخضر ، فاعترته هزّة ، هزّة الانتصار . أسرع الى النافذة يستنشق نسيماً نقياً تحمله اليه الطبيعة الحيّة ، فانسرى عنه همّ طال تعقيده . ها هو يطمئنّ ، وتطمئنّ نفسه القلقة الى الالوان الزاهية المشرقة . وضع لوناً مع لون ، فأشرق اللونان وزهزها ، وارتاح بعد عراك اضنـــاه ، واطمأنّ الى الالوان التي عبّرت عمّا يجول في نفسه من أفكار وآراء. انزاحت أهدابه عن عينيه مرّة ثانية ، فزهزهت امامـــه الالوان بقوّة عظيمة ، ورقصت مشعشعة ، بهيّة ، نشيطة ، تتحرّك بقوّة ، تتآلف في اللوحة وتتحدّث عن حيـــاة خالدة . واندفع الفنان ماتيس يرسم ويرسم ببساطة وعفويّة ، لا يجاريه فيها كثيرون ، يعتبر الالوان اهمّ ما في اللوحة .
وراح يرسم ليل نهار بهدوء رزين عميق .
وما أهميّة الالوان في لوحاتك ؟
فأجاب مطمئناً :
إن التعبير بالالوان يجيء من أعماق أعماقي . واللون نفسه أهل ليعبّر عن جميع الاشياء ، يترجم الضوء والشكل والاخلاق دون الاهتمام بالقيم .
ويجيل نظره في الطبيعة ، فتبدو كما يريد ان يراها ، يريد

الطبيعة صارخة في ألوانها ، قويّة في إشراقها . يغالي في الالوان ، ويقف امامها حرّاً طليقاً .

ألم يتحرّر من الطبيعة ومن تقليدها ؟ ألم يصبح سيّد الطبيعة ، تطيعه كلّما حرّك ريشته ؟! .

لم يعد الفنّان خادم الطبيعة الامين ، ولم تزل الطبيعة موحية إليه . اما الموضوع الاساسيّ فهو استجابة الفنان بطريقة مباشرة .

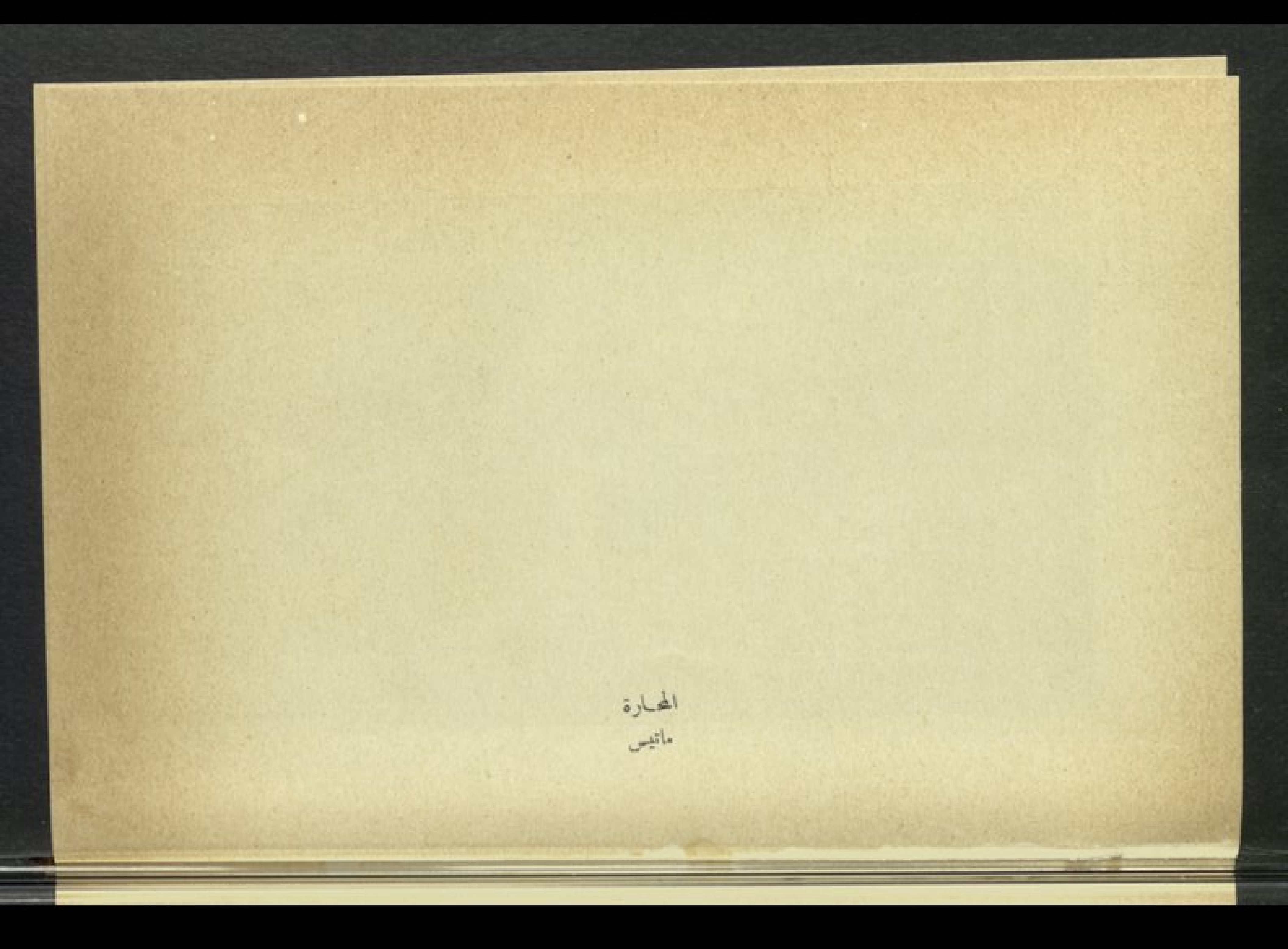
امّا الطريقة المباشرة فجاءت عن طريق الالوان الساطعة المتباينة ، أو عن طريق نموذج ، تأثيره في العين لا يعتمد على شبهه بالأصل ، بل يعتمد على احساس الزخرفة بقوّة لم يعطها احد من قبل .

ومشى يلقي على اشخاصه الواناً تعبّر عن حركاتهم وعواطفهم ، واصبح اللون عند الفنان يلعب دوراً عظيماً في لوحاته ، اعظم من الدور الذي لعبه اللون عند الانطباعيّين .

وركّز الفنان كلّ قواه على جعل اللوحة مسطّحاً ، يبعد عن الناظر فكرة وهم الابعـــاد بألوان قويّة ، ورسوم بسيطة ، عفويّة .

وقف الفنّان وفي يده ألوان مفرحة ، وعلى لوحاته تآلف جميل وتأليف بديع . وفتحت عيناه مشدوهتين بالفن الشرقيّ ولا سيا العربيّ ، وبالفن الافريقيّ . وحاولت ذهنيّته الفرنسية ان





المحارة
ماتيس

توحّد بين الانطباعيّة والفنّين العربيّ والافريقيّ .
ينقص الانطباعيّة ألوان صافية ، نقيّة ، مخلصة ، ساطعة ، تتحدّث الى كلّ من تراه دون عناء ، دون نفاق . وفي الفنّ العربيّ نظام وتأليف رائعان ، وفي الفنّ الافريقيّ بساطة الانسان البدائيّ ، وسذاجة أهل الغاب .
وراح مع رفاقه الادغاليين يهتمّون بروعة الالوان والتأليف ، وبساطة الموضوع .
لم يبتعد عن الطبيعة ، لأنها أوحت اليه الشيء الكثير .
أراد أن يردّ اليها معروفاً بمعروف ، فجنّد كل قواه يبنيها مرّة ثانية بعناية رائعة ، ينظم فيها أشكالاً وألواناً ، مبتعداً عن الفوتوغرافيّة ، يؤلف أشكالاً خياليّة ، لا وجود لها في الطبيعة إلا في نفسه المبدعة .
وقفت امرأة أمام لوحة من لوحاته تمثل إنساناً ، وفي احدى يديه ثلاث أصابع ، وبعد تأمل عميق في اللوحة ، صرخت مشمئزّة ، وهرعت الى ماتيس تؤنّبه بعنف :
لماذا شوّهتَ الطبيعة أيّها الفنان ؟ لماذا شوّهت وجوهها وتناسقها الجميل ؟!
أين الأصبعان الأخريان في اليد ؟
أين إنسانيّتك أيّها الفنان ؟!
أجال الفنان رأسه يمنة ويسرة ، فوجد نفسه محدّجاً

بالصورة ، وانطفأ في أذنيه صوت المرأة المزعج ، وتدخّلها السخيف ، الذي إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على جهل مؤلم .
واتكأ على عصاه مشفقاً على الذين يصرخون في وجهه طالبين منه ان يردّ الطبيعة الى أصلها ! اما الطبيعة فكانت مسرورة ، فرحة ، تمدّه بألف فكرة وفكرة ، تغمره بحنان ومحبّة ، تغذّيه وترعاه ، لأنّه شاركها في الخلق والابداع ، شاركها في التأليف والالوان ، وأضفى عليها روحاً خالدة ، قلّما يضفي عليها انسان مثله ..
ولم تأبه الطبيعة للناس ، كانت تدفعه دفعاً ، ويندفع بقوّة هائلة ، يرتفع درجة ، درجة ، حتى يعتلي درجة سامية يراه العالم ، وتفرح به الطبيعة ، وتشير اليه بالبنان :
هذا الاب البارّ ، هذا الفنان رسول الادغاليين الذين أرادوا ان يعودوا الى بساطة الغاب والادغال ، الى عبقريّة الطبيعة الحيّة ، بعد أن عرفوا بعفويّتهم معنى الخلق والابداع .
بعد صمت ، وبعد تأمّل عميق ، ابتسم يشارك لوحته عظمتها وألوانها وتأليفها ، ونسي ثرثرة المرأة ..
لو وضع الاصبعين الاخريين لانهدم تأليف لوحته . وبأنامله راح يتقرّى ألوانه المتحركة .. وأرخى أهدابه

على عينيه يختبىء بؤبؤين ، شعّ منهما الايمان القويّ ، والالوان الساطعة ، مبتعداً عن عينين أخريين انطفأ منهما كل ايمان وكل لون .

قصّة ماتيس قصّة صراع ، صراع الفن الحديث المطلق ، باحثاً عن مكان له في العالم .

وانتصر الفن ، ووجد له مكاناً ، فأمتدّ شعاعه مع الشمس الى العالم بأمره .

فرح الفنان بهذا الانتصار العظيم ، وظلّ مخلصا محبّاً ، يبعث الى الشمس ألواناً ساطعة ، بعيدة عن التعقيد والكبت . واطمأن الناظر والكاتب والعامل والتاجر الى فنّه الذي يعبّد طرق الناس الوعرة ، ويريح الذهن المضطرب .

دون اعياء وجهد ، ينظر الى فنّه جميـــع الناس ، فتزول أتعابهم الجسديّة والذهنيّة .

وللفنان ماتيس أحاديث مع شعراء ونقّاد .

وقف ابولينير الشاعر الفرنسيّ معجبا بفنّه ، وسرعان ما يرى الفنان عيون المعجبين ، فيبدأ بالتحدّث عن نفسه كأنه يحاضر في محفل كبير ..

وكيف تعبّر عن نفسك ؟

أعبّر عن نفسي بنقـاء ووضوح ، بطريقة قصيرة سريعة . أنظر .. هذه ألوان وهذه ألواح ، اضع أربع خمس نقط ملوّنة

أو أرسم أربعة خمسة خطوط ..
وما غايتك من اللون ؟
غايتي من اللون التعبير .. أمّا قيمة الألوان فأكتشفها بطريقة شعوريّة .
كيف ترسم فصل خريف مثلاً ؟
قبل أن أبدأ أفكّر في الالوان التي تساوق ذلك الفصل ، ومن هذا يُوحى إليّ شعور يختلف عن الفصل نفسه ، قد يكون الخريف بالنسبة لي دافئاً ناعماً . فاختياري للألوان لا يقف على ايّ نظريّة علميّة ، بل يقف على الاحساس والشعور والملاحظات الشخصيّة .
حقاً يا ماتيس أحسّ كما تحس .
وهل سُمع ما قاله اندريه جيد للناس وهم يتهامسون ويشيرون الى لوحاته بأنها بربريّة وضرب من الجنون ؟
تألم جيد ، وتمنّى ان يقترب منهم ويصفعهم بقوله :
لا ياسادتي .. بل بالعكس ، أنتم المجانين .. أمّا فنّه فنتيجة نظريات و ..
وتختنق العبارات وحروفها في حلقه ، ويجمد لسانه امام الناس ، الذين لا يعجبهم من يسير في درب غير دربهم ، وينظر بمنظار غير منظارهم ..

أيّها النـاس ، ان الفنانين مجانين ، مجانين ، لكنّكم أنتم العقلاء ! تعيشون كالبهائم ، تأكلون وتشربون ، ثم تمضون كأنّكم ما كنتم !

ولم يقتصر الاستهزاء به على رعاع الناس ، بل تعدّاهم بكل أسف الى النُقّاد ، واكثرهم من هؤلاء النـاس الذين يسرعون في حكمهم دون ان يحسّوا روحيّة الفنّان ، دون ان يراعوا عذابه الاليم وصراعه المضني ..

ان النّقاد ضفادع كل أمّـة وكل عصر ، يزعجون ولا يُطربون ، يؤلمون ولا يحسّون ، يجترّون أقوال الفنّانين المبدعين ولا يُبدعون .. ولم يترددوا ان دعوا ماتيس رسول القبح . ومن بينهم مارسيل نيكول الذي لم يرَ أي ابداع في لوحات ماتيس ، ولم يردعه ضميره ولا روحه من ان يلقّبه بالطفل الساذج البربريّ ، الذي يلهو بالالوان ، يبعثرها على ورق ، فتجيء مضطربة ، هائجة ، وذلك الطفل البربريّ يعبث بالازرق والاحمر والاصفر ، دون ان يعرف لها قيمة ..

ولم يكن جان هول أخفّ وطأة على الفنّان من مارسل نيكول ، وراح يقول إن لوحات ماتيس واتبـاعه الادغاليّين تحوي اشكالاً خياليّة خرساء ، والواناً جنونيّة ، رسمها اناس كالاطفال في ساعة عبث ولهو !

لا نيكول ولا هول فهما روحيّة الفنان الذي أرّقه العذاب والالم في سبيل تحرير اللوحة من أوهام الكلاسّية وتعقيدها ..

لا نيكول ولا هول فهما نفسيّة الفنان الذي أذاب روحه في سبيل تقريب الفن الى كل قلب ، الى ابن الغاب وابن المدينة .. الى البربريّ والمدنيّ .. الى الأميّ والمتعلم ..

ومَنْ مِن هؤلاء لا يفرح باللون الاحمر النقي ؟

ومَنْ مِن هؤلاء لا يطمئنّ إلى اللون الازرق السماويّ ؟

ومَنْ من هؤلاء لا يستروح إلى اللون الاخضر ؟

ومَنْ من هؤلاء لا يفتح عينيه على اللون الاصفر الشمسيّ ؟

منظر طبيعي جميل ، الوانه متحرّرة من كل وصف طبيعيّ . تبدو جذوع الشجر تارة خضراء وزرقاء ، وتارة اخرى صفراء وخضراء ، وأحياناً قرمزيّة وبنفسجيّة ، تنبت من ارض زرقاء ، برتقالية ، خضراء ، تحمل اغصاناً خضراء وخزاميّة . أما البحر والسماء فيبدوان من بعيد بلونهما الازرق الطبيعي . كل الوانه غردة ، فرحة ، نقيّة . ومن آن لآن يطلّ علينا وجه بشريّ ، وجه امرأته الحبيبة التي دعاها الناس بعد ان رسمها بالشريط الاخضر . وفي الاخضر يرى الفنان قرابة من جلد الانسان . وقد

رسمها وأراد أن يعبّر عن محبّته وغبطته ، فحمل ريشته يرسم شريطاً عريضاً أخضر من جبينها إلى انفها ، إلى ذقنها.
ومرّ الناس باللوحة ، فرأوا في ذلك الوجه مالم يره هو.
أهكذا رسم وجه امرأته ؟
رسمها هكذا ليعاقبها أمام الناظر .
إنّها عقاب او حكاية ، يريد أن يروي عن امرأته شيئاً غريباً مخيفاً ..
ويطأطىء الفنّان رأسه متألماً لأنه ما كان ليحقّر امرأته ، بل أراد أن يحبّها ، أن يصلّي من أجلها بهذا اللون البديع ، لون الحياة الابديّة ، اراد ان يخلّدها ..
ومن الفنّانين مَنْ يقف موقف النقّاد الجاهلين ، أو موقف الحاسدين ، مع أنّ طبيعة الفنّ بعيدة كلّ البعد عن الحسد والحقد والقسوة .
لِمَ لا نأتي بامرأة ، ندهن وجهها بشرائط خضراء ، من الجبين الى الذقن كما فعل .. ؟!
وماذا نفعل بها ؟
نرسلها إليه ! ..
وأرسلوا إليه المرأة مستهزئين به :
هذا نموذج يحقّ للفنان العبقريّ أن يرسمه ويستوحيه !
دمعت عين واحدة ، وفرحت العين الأخرى ، لأنّها

أدركنا أنّ صراع الفنّان لا بدّ منه ..
عين تبكيه ، وعين تفرح به .
وفي نظر هؤلاء الناس كان الفنّان بربريّاً ، وحشيّاً ، أو طفلاً غير مهذّب ، لم تثقّفه المدرسة ، أراد ان يهدم الطبيعة ويشوّهها ، وأن يستهزىء بالرسم ويشوّهه . وبالرغم من هذا واصل عمله ليل نهار ، دون أن يلتفت الى ما قاله الناس .
ومرّ واحد من الناس مشيراً إلى لوحة من لوحاته ..
أيّ نوع من القبّعات تلبس هذه المرأة ؟ وأي نوع من الثياب تلبس ؟ وبأيّ ألوان صارخة جنونيّة ، لا وجود لها في الدنيا ، تصبغ ثيابها ؟ !
ولم يصبر الفنّان في هذه المرّة ، وأحسّ صوتاً هائلاً يندفع من حنجرته ، ليجيب هذا الانسان :
ألم ترَ يا هذا ما نوع الثياب وما ألوانها ؟ .. انها سوداء ! سوداء ! سوداء حالكة !
سوداء تلك الألوان الصارخة ، أرادها سوداء مثل وجوه من لا ماء في وجوههم ، ومن لا احساس في قلوبهم ، ومن لا ثقافة في نفوسهم .
أرادها سوداء مثل وجوههم وعيونهم ، ليرتاح من الجدل العقيم ، الذي لا يرضى ان يعطي ، ولا يرضى ان يأخذ ..

وأصبح ماتيس أبا الأدغاليّين الذين انطلقوا أحراراً في الطبيعة ، أحراراً منها ومن مناظرهـــا .. وراح الناس يغسلون السواد من عيونهم ومن قلوبهم سنين عديدة ، حتى استطاعوا أن يروا ما لم يروه من قبل ..

وأصبح رسول القبح ، رسولَ الحياة والجمـــال ، يحمل عصاه ، يبتسم لجميع الكائنات ، يمشي في مزرعته روحة وجيئة حتى لبّى دعاء الخالدين ، فابتسم مطمئناً :

لقد صارعتُ ، صارعت حتى أوجدتُ في عـــين الشمس مكاناً شريفاً عالياً للفنّ الأدغـــاليّ ، ولم تعُد ألواني في قلوب الناس سوداء .. لم تعد سوداء !

## مصادر


▲ Allen, George and Unwin LTD — Auguste Rodin — London, 1939.

▲ Barr, Alfred—Matisse, His Art and His public—Newyork, 1951.

▲ Barr, Alfred— The Museum of Modern Art— Paris, 1950.

▲ Besson, George — La Peinture Française(Au xIx siècle) Paris ?

▲ Besson, George — Matisse — Paris?.

▲ Cooper, Douglas — William Turner — Paris ?.

▲ Craven, Thomas — Famous Artists and Their Models — Newyork, 1949.

▲ Downes, W. H. — The Life and Works of Winslow Homer — Newyork, 1911

▲ Faure, Elie — Cézanne — Paris ?

▲ Faure, Elie — Corot — Paris, 1953.

▲ Goldwater, Robert—Vincent Van Gogh —Newyork, 1953.

▲ Green berg, clement — Cézanne — Newyork, 1953.

▲ Greenberg, clement — Henri Matisse —Newyork, 1953.

▲ Greenberg, Clement — Van Gogh — Newyork, 1953.

▲ Leclerc, André — Cézanne — Paris ?

▲ Leclerc, André — Van Gogh — Paris ?

▲ Malone , Dumas — Dictionary of American Biography Vs. IX,XX — Newyork, 1946.

▲ Mazenod, Lucien — Les Peintres Célèbres —Paris, 1948.

▲ Myers, Bernard — Modern Art In The Making — New - york, 1950.

▲ Natanson, Thadée — Peints à Leur Tour, Paris, 1948.

▲ Pennell, Joseph and Elizabeth — The Life of James Mc Neill Whistler — Newyork, 1908.

▲ Pierard, Louis — Vincent Van Gogh — Paris ?

▲ Rodin, Auguste — Les Cathédrales de France — Paris 1925.

▲ Stokes, Adrian — Cézanne — Faber and Faber ?

▲ Stone, Irving — Lust for Life — New york, 1945.

▲ Thomas, Henry and Dana Lee — Living Biographies of Great Painters — Newyork, 1946.

▲ Venturi, Lionello — Cézanne Water Colours— Oxford, 1944.

▲ Wein berg, Louis — The Art of Rodin—Newyork, 1918.

لثريا ملحس

▲

النشيد التائه - ١٩٤٩

قربان - ١٩٥٢

١٠ نفوس قلقة - ١٩٥٥

يصدر

▲

أدب الروح عند العرب ( بحث )

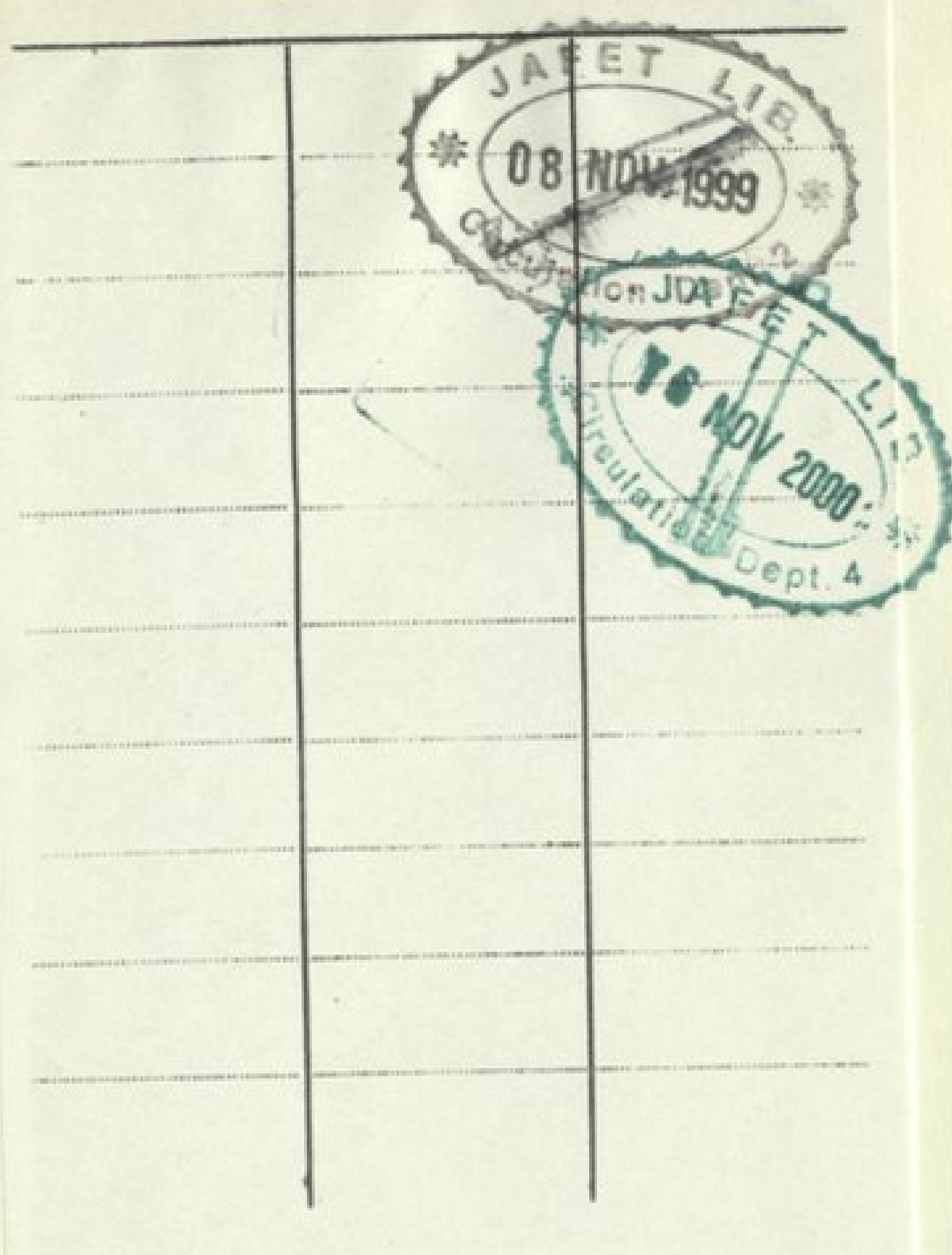
العقدة السابعة (قصص)

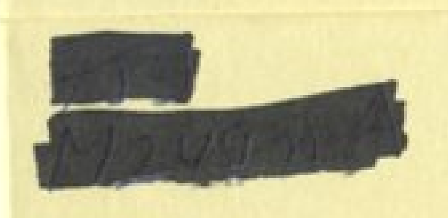
prisoners of time (شعر بالانكليزية)

المؤسسة الاهلية
للطباعة والنشر
ص ـ ١
بيروت ١٩٥٥

مطابع دار الكشاف

٢٥٠ قرشاً لبنانياً


DATE DUE
JAFET LIB.
08 NOV 1999
JAFET LIB.
16 NOV 2000
Circulation Dept. 4


[redacted]

